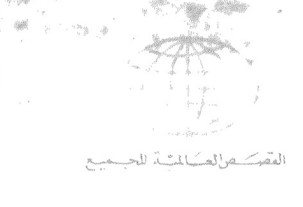
أيفانهو

سير والتر سكوت

أو الفارس الأسود



"إيفانهو" أو الفارس الأسود

القصص العالمية للجميع

أيفانهو

سير والتر سكوت

أو الفارس الأسود

ترجمة
د. زياد زكريا

منشورات
المكتبة الحديثة - بيروت
دار الشرق العربي - بيروت

مؤلف الروايـة

السير والترسكوت شاعر وروائى اسكتلندى الاصل ، ولد فى مدينة ادنبره فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٧١ • وقد اصيب فى طفولته بحمى قاسية جعلته فيما بعد اعرج الساق ، وعطف عليه أبواه من اجل هذه العاهة ، فتركاه لنفسه ، يختار ما يريد الاطلاع عليه دون ان يحثه احد على نهج معين ، واستطاع فى خلال ذلك ان يخرج من مطالعاته العديدة بما اصبح بعد ذلك ذخيرة عظيمة قيمة فى اعماله الأدبية • ولما اشتدت قواه ، استطاع ان يلتحق بالمعاهد الدراسية ، وما بلغ الخامسة عشرة من عمره حتى حذق اللغتين الفرنسية والايطالية ، وانكب على كتبهما الادبية ينهل منها قدر ما يريد • على ان سكوت برغم سافه المهيضة ورغم ما اعتراه فى شبابه من أمراض عدة ، كان قوى البنية . ولهذا كثيرا ما كان يشترك فى معارك الطلبة

وفىعام ١٧٩٢ اصبح محاميا ، واستطاعفى عام ١٧٩٩ انيحصل على وظيفة قضائية بمرتب قدره ٣٠٠ جنيه فى العام

وبدأ سكوت فى نظم الشعر ، متأثرا بالشعر الالمانى الذى اعجب به ، وعرف بشاعريته الخصبة

وفى عام ١٨٠٥ بدأ كتابته القصصية ، وانطلق يضع رواياته وصدرت أول رواية له بدون ذكر اسمه عليها ، وقد علل لوكهارت رغبة سكوت فى عدم ذكر اسمه ان سكوت فى ذلك الوقت كان يرى ان كتابة الروايات لاتتفق مع جلال عمله فى السلك القضائى

وعلى الرغم من ذهابه كل يوم الى عمله ، واندماجه فى الحياة الاجتماعية واختلاطه بالناس ، فقد راح يصدر بعد ذلك رواياته الفذة ، وكان اغلبها يدور حول الفروسية والنبل والمغامرات الغرامية والدراما

ولقد جاء وقت كان فيه سكوت يعمل عدة أعمال فى وقت واحد، فكان يشتغل فى مكتب الشريف ، وفى عمله القانونى ، وفى نظم

الشعر . وكتابة الروايات ، ورجل ادب ، وناشر كتب • وقد احدث المجهود الذى بذله اثره فى صحته ، ففى عام ١٨١٧ عانى آلامامبرحة فىمعدته ومن نوبات شديدة ، ظلت تهاجمه فى فترات متقطعة مدة عامين • بيد أن هذه العللوالامراض لمتحل بينهوبين رغبتهالجامحة فى القراءة والكتابة وفى اعماله الادبية بوجه عام • ولم يكتف سكوت بما نال من شهرة ومجد ادبى ، بل طرق باب كتابة المسرحيات

وقد اشتهر سكوت بسرعته فى الكتابة ، فكانت الرواية أو المسرحية لا تستغرق منه الا اقصر وقت عرف فى تاريخ التاليف

وحلت به فاجعة الافلاس حوالى أواخر عام ١٨٢٥ ، عقب اشتباك الناشرين بعضهم ببعض ، واذا بسكوت يجد نفسه مدينا بمبلغ ١٣٠ر٠٠٠ جنيه ، فثار بدافع كبريائه بازاء ذلك الافلاس الذى هز كيانه المالى والادبى . وما من انسان يستطيع ان يقوم بما قام به سكوت من جهود مضنية ليلا ونهارا بقية حياته حتى يستطيع ان يسدد ذلك الدين العظيم ، وقد ابى ان يعاونه احد فى محنته ، ولم يطلب من دائنيه اية رحمة الا ان يسمحوا فيطيلوا له فى وقتالسداد

اما كيف نجح سكوت فى هذه الضائقة فمسألة تعد من أمجد الاعمال فى تاريخ الادب

وقد توفيت زوجته عقب حلول الكارثة • ورغم فقدانه زوجته ، وعلله وأمراضه ، فقد ظل سكوت يعمل اناء الليل واطراف النهار فاصدر فى خلال سنوات قلائل تعد على اصابع اليد الواحدة عدة مجلدات اربت على العشرين ، هذا الى جانب العديد من المقالات الادبية فى الصحف والمجلات ، وقد استطاع فى خلال ثلاث سنوات ان يسدد ٤٠ر٠٠٠ جنيه لدائنيه . وكان المجهود شاقا مضنيا ، فاصيب بمبادىء الشلل فى فبراير عام ١٨٣٠ ، ولم يستطع اصحابه أو اطباؤه ان يحملوه على الاعتكاف والاستجمام والتماس الراحة ، فظل يعمل حتى اتم الروايتين اللتين كان على وشك اتمامهما • غير انه حين ضعفت قواه العقلية ، واعتقد انه سدد كل ديونه واصبح حرا طليقا ، استكان الى مشورة اصدقائه ، ولجأ الى الراحة ، ولما عرفذلك عنه ، وضعت الحكومة البريطانية سفينة تحت امره ، وانطلقت به تجوب البحر الابيض المتوسط ، وزار خلالها كثيرا من الاماكن الشهيرة ، وقضى فى ذلك عاما قبل وفاته التى كانت عام ١٨٣٢

أهم شخصيات الرواية

* سيدريك	Cedric	: نبيل سكسونى مناهض للنورمانديين
* جورث	Gurth	: راعى خنازير سكسونى مملـوك للنبيل السكسونى : سيدريك
* وامبا	Wamba	: مهرج سكسونى ذكى يدعى البلاهة مملوك للنبيل سيدريك
* بريان	Briand	: قائد فرسان المعبد
* ريجينالد	Reginald	: المعروف بجبين الثور . نورماندى ضخم شرس طماع لاخلاق له
* روينا	Rowena	: اميرة سكسونية من سلالة الاسرة المالكة السابقة على الغزو النورماندى
* ولفريد	Wilfrid	: المعروف بايفانهو وهو الابن الوحيد للنبيل سيدريك
* الجيثا	Elgitha	: وصيفة الاميرة روينا
* أيمر	Aymar	: اسقف جورفو النورماندى الاصل
* اسحاق	Isaac	: يهودى مراب مسن طائل الثراء
* ربيكا	Rebecca	: حسناء يهودية ابنة اسحاق الوحيدة
* أثيلستان	Athelstane	نبيل سكسونى مطالب بعرش انجلترا من يد الغزاة النورمانديين
* والدمار	Waldemar	: من كبار القواد النورمانديين ومستشار الامير جان
* براسى	Bracy	: قائد حرس الامير جان النورماندى
* لوكسلى	Locksley	: سكسونى يتزعم عصابات العصاة المتمردين على الحكم النورماندى
* الامير جان	Jean	: الوصى على العرش فى غياب أخيه قلب الاسد فى الحروب الصليبية
* أولريك	Ulrique	: عجوز من سلالة سكسونية عريقة
* ريتشارد	Richard	: الملقب بقلب الاسد . ملك انجلترا

الفصل الأول

شعب وغزاة

في منطقة من اجمل المناطق في الريف الانجليزى ، حيث تجرى مياه نهر الدون ، كانت تمتد في سالف الازمان غابة مترامية الاطراف ، تغطى دوحاتها البواسق الجانب الاعظم من تلك البطاح والتلال والوديان الواقعة فيما بين شيفلد ودونكاستر

ولم تزل البقية الباقية من هذه الغابة المترامية تتراءى للعين بين موضع وموضع في المراعى المحيطة بمدينة روثرهام . وهناك وقعت أعنف المعارك الدامية في فترة الحروب الاهلية التى تسمى في التاريخ باسم حرب الوردتين . وهناك أيضا ازدهرت في الزمن الخالى تلك العصابات المتهورة في سمع الزمن بالبسالة والشجاعة والبأس الشديد ، وقد سميت هذه العصابات في اهازيج الشعب الانجليزى الشعبية باسم الخارجين على القانون أو العصاة

وحقيقة هؤلاء العصاة أنهم جماعة السكسون الذين رفضوا الخضوع لسلطان النورمانديين . بعد أن اصبح النورمانديون ملاك الارض بحق الفتح وطردوا منها زراعها وملاكها من أهالى البلاد السكسون . فما كان منهم الا ان الفوا تلك العصابات ولجاوا الى الكهوف والبرارى والمستنقعات والغابات . ولما كانوا جاحدين لكل سلطة قامت في بلادهم بعد الفتح النورماندى ، فقد جعلوا من انفسهم خارجين على القانون أو عصاة . وصار كل همهم الايقاع بالنورمانديين في اشراكهم وقطع الطرق عليهم والمطالبة بالفديات عنهم . وكثيرا ما كانوا يقتلونهم بغير رحمة

وقد لقيت هذه الاعمال الخارقة ضد الفاتحين اعجابا شديدا لدى أبناء الشعب كافة ، واستمرت شعبيتهم زمنا طويلا . وأصبح

روبين هود احـد أعلامهم المبرزين بطلا شـعبيا يتردد اسـمه فى الاساطير والاهازيج

وهذه المنطقة الجميلة التى وصفناها هى المسرح الرئيسى لقصتنا هذه اما زمانها (وهو سنة ١١٩٤) فهو الفترة الوسطى من ملك ريتشارد الاول ، وهو الملقب فى التـاريخ بكنية قلب الاسد . وقد امضى مدة عمره محاربا فى فلسطين اثناء الحملة الصليبية ، ثم شغل بالحرب فى فرنسا ضد ملكها فيليب اوغسطس . واصبح هذا الملك شخصية بطولية فى الاسـاطير الشـعبية الانجليزية لشجاعته ونبل سجاياه . وكانت وفاته سنة ١١٩٩ بسهم اصابه فى معركة

وفى سنة ١١٩٤ هذه نجد ريتشارد قلب الاسد وقد تخلص من اسر وقع فيه غيلة فى اوروبا . وذاع بين الناس فى انجلترا انه عائد لاسـترداد عرشـه من اخيه الخـائن ، ولتخليص رعاياه من ظلم البارونات النورمانديين . فتعلقت قلوب الشعب بهذه العودة وبنوا عليهـا الآمال الكبـار ، لما عرف عنه من العدل والنجدة واكتمـال سجايا الفرسان

ولما سمع البـارونات الاقطاعيون تلك الشـائعة اخذوا يحصنون قلاعهم ويزيدون من عدد جنـودهم وحراسهم ، مسـتغلين ضعف سلطان مجلس الوصاية على العرش فى غيبة الملك الشرعى

أما موقف طبقة صغار النبـلاء فكان غاية فى الدقة . فقد كانت الظروف كثيرا ما تضطرهم الى الدخول تحت حماية احد البارونات الكبـار ، او بعض ذوى النفوذ ، يشـترون رعايته اياهم بالتعهـد بمساعدته فى جميع أعمـاله ومشروعاته ، وبذلك يتخلون عن هـذا الاسـتقلال الذى طالما كان عزيزا على قلوب الانجليز النبلاء منـذ اقدم العصور

وبعد فتح البلاد على يد وليم دوق نورمانديا بنحو أربعة أجيال ، لم يكن هناك اى اندماج حقيقى بين دماء السكسون ودماء اعدائهم النورمانديين . فكل من السلالتين تنظر الى السلالة الاخرى نظرتها الى خصم لدود . وبينهما فوارق جمة من جميع الوجوه : فوارق من حيث الاصل واللغة والطباع والعادات والتقاليد . وكانت الطبقة الارستوقراطية مقصورة على وجه التقريب فى النورمانديين الذين

استأثروا بجميع الطيبات وراحوا يكدسون الثروات والقاب الشرف ويتملكون الاراضى الواسعة • أما السكسون فليس لهم من الامر شيء ، وعليهم أن يزرعوا الارض لمالكيها الجدد

وخلفاء وليم الفاتح من ملوك انجلترا كانوا يتحيزون تحيزا ظاهرا لرعاياهم النورمانديين . فاللغة الفرنسية هى اللغة السائدة ، سواء فى البلاط الملكى أو فى قصور كبار النبلاء . فهى لغة الشرف والفروسية والعز والجاه ، ولغة الدولة والقضاء . وجميع القوانين واللوائح تستمد مباشرة من أصول فرنسية • أما اللغة الانجلو سكسونية فتركت للعامة والسوقة

بيد ان الاتصال الضرورى بين السادة والخدم كان سببا فى نشوء لهجة جديدة هى خليط من الفرنسية والانجلو سكسونية • ومن هذه اللهجة الهجين خرجت الى العالم شيئا فشيئا تلك اللغة الانجليزية الحديثة

ولم يكن هناك مناص من الالمام بهذهالظروف كى يتسنى للقارىء فهم الاحداث التى تدور حولها قصتنا هذه . . .

◘

كانت الشمس تضىء باشعتها الاخيرة خميلة من اجمل خمائل الغابة التى تحدثنا عنها فى مطلع هذا الفصل . فالاشجار من كافة الانواع والاشكال ترتفع الى عنان السماء قوية مستقيمة ، وتنبىء عن عنفوان التربة وخصبها وقد تشابكت اغصانها وتداخلت حتى حجبت ضوء الشمس فى كثير من المواضع ، وصار المنظر فى جملته من اروع ما يطلق للخيال الخصب اعنته ، ويبعث فى النفس الروعة والجلال امام تلك الطبيعة البكر

وفى هذه الخميلة جلس شخصان فوق حجرين كبيرين عند مجرى ماء يزيد من جمال المنظر وخلابته . وكان مظهر هذين الرجلين وزيهما متسمين بالطابع الريفى الذى يتميز به سكان منطقة الغابات فى مقاطعة يورك

ومظهر هذين الرجلين فيه خشونة بادية وجلافة وخلو من كل تهذيب وثقافة . وقد ارتدى احدهما سترة من جلد حيوان • غ.
وهذا الثوب البدائى الذى لم يكن على جسده ثوب سواه مصنوع

بطريقة غاية في البساطة . فليس فيه سوى شق يكفى لدخول الرأس . اما القدمان فعبهما صندل بدائى أيضا . وحول الخصر حزام من الجلد . يتدلى منه قرن ثور يستخدم نفيرا ، ويتدلى من الجانب الآخر سكين طويلة لها نصل عريض ، من قبيل تلك السكاكين التى كانت تصنع يومئذ فى منطقة شيفلد . وثمة شيء يستلفت النظر جدا فى هذا الثوب ، هو عقد من النحاس شبيه من جميع الوجوه بأطواق الكلاب ، وهذا الطوق محفور فيه باللغة السكسونية الكلمات التالية :

« جورث بن بولف المولود عبد السيدريك »

اما الرجل الآخر فيبدو أصغر من جورث سنا بنحو عشر سنوات . وثيابه شبيهة بثياب جورث مع فارق واحد : فسترته المصنوعة من الجلد مصبوغة بلون قرمزى فاقع ، ومزينة بمجموعة غريبة من ريش الطيور . وفوقها معطف قرمزى اللون مطرز بالقصب ، وملطخ بالبقع . وفى قدميه جوربان أحدهما أصفر والآخر احمر . وفى معصميه أساور من الفضة . وفى عنقه سلسلة من الفضة مثل طوق الكلاب ، وفوقها العبارة التالية :

« وامبا . ابن المجنون . عبد سيدريك »

ويكمل جو الغرابة الذى يوحى به هذا الثوب سيف من الخشب يحل فى خاصرته محل سكين زميله . ولا شك أن هذا الشخص ينتمى الى تلك الطائفة من المهرجين الذين يناط بهم فى الزمان الماضى تسلية الاغنياء ، ومساعدتهم على تزجية الساعات الطويلة المملة فى قصورهم الموحشة

ولم يكن الاختلاف بين الرجلين مقصورا على المظهر والزى ، بل أن سحنتيهما مختلفتان كل الاختلاف . فأولهما هو جورث راعى الخنازير ، له وجه متجهم . ونظراته تدل أوضح الدلالة على ضيقه بوضعه الاجتماعى وسخطه الشديد عليه . أما وامبا المهرج فهو بهلول يبدو عليه بوضوح السرور بحاله وعدم الاكتراث لشيء

وجعل جورث يبذل محاولات فاشلة لجمع قطيعه المبعثر فى الغابة بزعقات متكررة فى بوقه . فصاح غيظا :

ــ لعنة القديسين جميعا على هذه الحيوانات الجهنمية ! ولعنة

الله على هذا الكلب الخبيث الذى يفرقها بدلا من تجميعها . هيا يا وامبا أعنى عليها

ــ الحق يا عزيزى جورث انى فكرت فى ذلك من قبل ، فلما استشرت ساقى العزيزتين ، اظهرتا معارضة شديدة ، وعزوفا عن مشقة المشى واذى الاشواك . فاترك ياعزيزى خنازيرك على هواها . فلا يمكن أن يصيبها سوء . وعلى الاكثر ستنقلب الى نورمانديين !

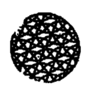
فصاح جورث :

ــ ماذا تقول يا وامبا ؟ الخنازير تتحول الى نورمانديين ؟ لا تتكلم بالالغاز يا وامبا فمخى الضعيف لا يستطيع فهم اغراضك

ــ ليكن ! سنشرح لسيادتكم ما دق فهمه على دماغكم الغليظ . ان هذه الحلاليف اذا شردت ستقع فى ايدى النورمانديين . ويأكلونها وتصير جزءا من أجسامهم النورماندية . وهذا هو كل شىء !

ــ يا لك من فيلسوف !

ونهض جورث واستعان بكلبه « فانج » على جمع القطيع . ثم اتجه الجميع الى طريق عريض يشق الغابة . وكان الجو ينذر بعاصفة توشك ان تهب . والرجلان يعلمان أن مولاهما لا يحب ان يتاخر عبيده عن العودة بعد غروب الشمس . ولذا اسرعا فى سوق القطيع ، ولاسيما ان كوكبة من الفرسان الغرباء يناهز عددها العشرة أخذت تقترب من بعيد . .



الفصل الثانى

موكب

ومهما تكن سرعة وامبا وجورث فى العودة ، فسرعة ذلك الموكب من الغرباء اكبر بكثير . وكان على راس ذلك الموكب فارسان ، احدهمابغير شك كبير من كبراء رجال الكنيسة ، عليه ثياب فاخرة مزركشة من غير المعهود أن يرتديها الرهبان . وهو ممتط صهوة بغلة اسبانية ثمينة عليها ركاب نفيس . وقد أخذ بعنانها راهب شاب . وهناك حفنة اخرى من الرهبان يثرثرون ويضحكون غير مبالين ببقية الموكب الذى يتبعهم عن كثب

والفارس الآخر تجاوز الاربعين طويل القامة نحيل الجسم ولكن يبدو عليه انه رياضى قوى البنية متين الاعصاب ، وقد لوحت الشمس وجهه . ذلك الوجه الذى تروى أخاديده قصة مائة مغامرة شاقة ، وتدل نظرته الثاقبة على أنه كفيل بتحمل الف مغامرة اخرى . فكأن عينيه السوداوين تفتشان دائما عن العقبات والمصاعب ليتحداها ويتغلب عليها

ونرى هذا الفارس يجمع بين ثياب الرهبان وثياب الفرسان . فقد استعار من الرهبان القميص الضافى الذيول ، والصليب المنقوش على الكتف اليسرى . واستعار من الفرسان ذلك الزرد المصنوع من حلق دقيق من الفولاذ يكسو صدره ، وذلك القفاز الحديدى والفخاذين الفولاذيين . ولكنه لا يحمل اى سلاح عدوانى اللهم الا خنجرا طويلا يتدلى من حزامه . وفوق رأسه قبعة مفلطحة يسميها الناس فى فرنسا القصعة . ومن تحته حصان قوى يتحمل مشاق السفر . أما جواده الحربى الاصيل فيقوده سائس فى المؤخرة . وقد فضل ان يعفيه من مشاق هذه الرحلة على ظهره

وفى المؤخرة سائس آخر يحمل اسلحة مولاه ، ومجموعة من الخدم سمر البشرة تدل ثيابهم الغريبة على عنصرهم الشرقى

وقد اثارت غرابة هذا الموكب فضول وامبا وصاحبه جورث ، مع أن جورث اقل من وامبا خفة وفضولا فى العادة . فلما نظر عن قرب عرف فى ذلك الكاهن اسقفا مشهورا بكثرة الصدقات والعطف على الجميع مما جعل له شهرة فائقة ومكانة سامية بين سكان الريف

وخاطب الاسقف وامبا فى لطف وسأله عن مكان يقضي فيه ورفاقه والحاشية ليلتهم . ولكن وامبا صمت ولم يجب فتدخل الفارس قائلا :

ـ اظن يا سيدى الاسقف أن سيد هذا المكان هو سيدريك السكسونى ؟

فقال الاسقف لوامبا

ـ هذا صحيح . قل لنا يا بنى كيف نصل الى مقر سيدريك لاننا نريد ان ننزل ضيوفا عليه

فتعرض جورث للاجابة قائلا :

ـ اتريدون ان تنزلوا على الناس هكذا ، كأن الضيافة حق شرعى لكم من ملحقات الفتح ؟!

فاغتاظ الفارس ورفع سوطه يهم أن يضرب جورث . فاحمر وجه راعى الخنازير ووضع يده على مقبض سكينه . فصاح الاسقف :

ـ بربك ياسيدى بريان . اننا لسنا الآن فى فلسطين ! اراقة الدماء هنا خطيئة . أرجو منك أيها الصديق ذو السترة الحمراء ان تدلنى على الطريق الذى يوصلنا الى مسكن سيدريك السكسونى

فضحك وامبا وقال :

ـ ليكن ! فليتفضل سادتى النبلاء بالاستمرار فى هذا الطريق الى أول تقاطع . وهناك ستجدون اربعة طرق . فلتسيروا فى الطريق الايسر . اعنى الذى على الشمال . واسرعوا بربكم قبل أن تهب العاصفة

واسرع المسافرون الى تنفيذ وصيته . وعندئذ قال جورث لوامبا :

ـ اذا اتبعوا نصيحتك فلن يصلوا الليلة الى روذرود !

وردرود هى مقر سيدريك . وضحك وامبا قائلا :

ــ طبعا لن يصلوا من الطريق الايسر الى روذرود . ولكنهم قد يصلون عند الفجر الى شيفلد . ويكون ذلك أوفق لهم

أما الفارس والاسقف فأخذا وهما يجدان فى السير يتحدثان عن سيدريك . فروى الاسقف ما يعرفه عن ذلك السكسونى وعن احوال المنطقة ، وكيف أنه شديد التكبر ، عنيف ، عظيم الغيرة على حقوقه وامتيازاته . يناصب العداء طبقة النبلاء النورمانديين ، ويحارب جيرانه الاقربين وعلى رأسهم ريجينالد جبين الثور ، وفيليب جار السوء . وواضح أن هذا النوع من الالقاب كان يطلق على النورمانديين لتحقير شأنهم

ولم يكن سيدريك يدع فرصة الا انتهزها لحماية حقوق السكسونيين . فهو شديد الزهو بأرومته . عظيم الطموح . شديد الاعتزاز بربيبته الحسناء التى يظنها الناس ابنته . وهى الاميرة روينا . ويعدها لمستقبل باهر . لأنها سليلة الملك الفريد السكسونى آخر ملوك وسكس ، الذى حارب الدانماركيين عندما غزوا بريطانيا . واستشهد بعد أن طبق صيته الآفاق ، وصار مثلا خالدا عند شعبه للقائد المجرب والحاكم الحكيم . حتى استحق أن يلقب شارلمان انجلترا

وعقب الاسقف على ذلك بقوله :

ــ وسترى الآن يا سيدى بريان بعينيك هذه الاميرة الجميلة ، وتحكم بنفسك على جدارتها بذلك النسب العريق وبالدور الذى نعده لها

ولكن يجب ان يلزما جانب الحرص والحذر حتى لا تتيقظ هواجس مضيفهما الذى يرعى روينا رعاية تجل عن الوصف . حتى لقد قيل انه طرد ابنه الوحيد ايفانهو عندما رآه يطمح بأنظاره اليها

ووصل الاثنان الى التقاطع الذى أشار اليه المهرج وقد جرفهما الحديث الجدى فنسيا أقوال المهرج . وقال الاسقف :

ــ اظنه نصحنا أن ندور يسارا ؟

ــ بل يمينا على ما اذكر

ــ بل يسارا بالتأكيد . وأذكر أيضا أنه أشار بسيفه فى الوقت

نفسه الى جهة اليمين على عادة المهرجين في المفارقة والاضحاك وتمسك كل منهما برأيه كما يحدث في مثـــل تلك الظروف . وعندئذ لمح بريان شخصا نائما . فايقظه . فنهض الرجل واخـــذ ينفض التراب عن ثيابه . وساله الاسقف عن مقر سيدريك السكسوني فقال الرجل :

ـ ينبغي أن اسرع الى هنـــــاك . ولو كانت معي دابة لسرني ان أرشدكما الى الدار

وعلى الفور أجيب الفلاح الى طلبه فسار بالموكب في طريق مضاد تماما للطريق الذى أشار به وامبا . وبعد وقت قصير من السير في طرق متعرجة وصل الموكب الى فضاء مكشوف تقوم في وســـطه روذرود

ولم يكن الرجل الذى قاد الموكب فلاحا بمعنى الكلمة . اذ كان ثوبه أشبه بثياب الرهبان الريفيين . ولما عجب الفارسان من معرفته بأسرار الطريق في تلك الجهة قال باقتضاب :

ـ لقد ولدت في هذه المنطقة

وكانت روذرود عبارة عن مجموعة من الابنية المنخفضة مقامة فوق فضاء شاسع من الارض ، ولا تشبه في كثير او قليل تلك القلاع والحصون التى يقيم بها النبلاء النورمانديون بأبراجها العالية

ومع هذا لم تكن روذرود خالية تماما من وسائل الدفاع . لان تلك الوسائل كانت من الزم اللوازم في ذلك العصر المتقلب الذى يكثر فيه السطو المسلح ، فهناك خندق عريض وسور متين ودشمة حصينة بها مجموعة من المدافعين رماة السهام تعلو ذلك السور ، ومن أمامها المعبر الوحيد فوق الخندق

وكان هذا المعبر هو الذى اجتازه الموكب الى روذرود

الفصل الثالث

ضيوف قادمون

وفى ذلك الوقت كان سيدريك جالسا بمفرده فى قاعة مترامية الاطراف اعدت لتكون حجرة مائدة . وكل شىء فى تلك القاعة من حيث البناء والاثاث يذكر الانسان بالعصر السكسونى فى بســـاطته الخشنة . فكل شىء خال من الاناقة بله الترف !

فان رفعت عينك الى فوق رأيت سقفا مصنوعا من الخشب فى اشكال غير منتظمة وصناعة غير متناسقة . وعلى الجدران الاربعة علقت أدوات كثيرة للحرب والصيد . أما الارض فكانت عبارة عن ملاط بدائى مصنوع من الجير والتراب دك حتى صار صلبا . فمـــا أشبه تلك القاعة الواسعة بمخزن غلال فى ضيعة عصرية !

وكانت هناك مائدتان متباينتان فى الشكل . احداهما عالية مغطاة بمفرش ثمين من الخز القرمزى اللون ، مخصصة لكبار الشخصيات . أما الاخرى فأطول من الاولى وأقل ارتفاعا ، وهى مخصصة للعامة من الناس . وكلتاهما مصنوعة من خشب البلوط المتين ، الذى صنعت منه أيضا المقاعد الصغيرة والكبيرة . وفى وسط مائدة الشرف المرتفعة عن القاعة فوق مصطبة كبيرة خصص مقعدان كبيران ، هما أضخم من سائر المقاعد لرب الدار وربتها

وكان سيدريك جالسا فى أحد هذين المقعدين ، وقد ارتسمت على وجهه علائم نفاد الصبر الذى يشعر به حين تقترب لحظـــــة العشاء . ومن الواضح لأول نظرة ان هذا الرجل ذو خلق صريح وطبع مستقيم ، بيد أنه سريع الغضب حاد المزاج . وهو وان ناهز الستين من عمره ذو مظهر قوى . وقامته غير عالية ولكنه وثيق الاعضـــــاء متين التركيب . لم يكد الشيب ينال من شعره الأشقر الطويل

الناعم الذى يفرقه على الطريقة السكسونية من منتصف الجبهة الى قمة الرأس

وقد ورث سيدريك من أرومته السكسونية ذلك الوجه العريض ، والملامح الواضحة والعينين الكبيرتين الزرقاوين ، ولا يبدو عليه من آثار ثرائه الطائل الا شيء من العناية بتفاصيل ثيابه وزينته فجلبابه الاخضرالقاتم يزدان بقطع من الفراء الثمين • وحول معصميه وعضديه أساور من الذهب • وحول عنقه قلادة ثقيلة من ذلك المعدن • وقد تدلى من خاصرته سيف قصير ، حمائله وقرابه مرصعة بالاحجار الثمينة . وكذلك منطقته الجلدية العريضة

وكما أسلفنا القول ، لم يكن يبدو على سيدريك في تلك اللحظة أنه فى احسن حالات انشراح صدره واعتدال مزاجه . فهو ضيق الصدر لان الاميرة روينا تاخرت كعادتها فى النزول الى قاعة المائدة • ويضاف الى هذا قلقه لتاخير قطيع الخنازير ، وخوفه على مصير جورث وواميا • فان المنطقة لا تخلو من قطاع الطرق العصاة الذين يخطفون الرعاة ويسلبون القطعان • ولو كان واميا موجودا لسرى عنه وأضحكه وبدد كآبته وضيقه

فلم يعد أمام رب الدار من وسيلة للتنفيس عن استيائه الا توجيه عبارات السخط الى الخدم الذين يحيطون به ، كان يسالهم :

ـ لماذا تاخرت الاميرة روينا ؟

فأجابت اشد الخادمات جسارة :

ـ انها تتم اللمسات الاخيرة فى زينتها . فلا اظن مولاى يرضى بعد المطر الغزير الذى نزل ، أن تظهر مولاتنا على المائدة مشعثة

فصرف سيدريك غضبه الى موضوع القطيع والراعى . وجعل يلعن النورمانديين عامة ، وجيرانه خاصة ، ولا سيما جبين الثور وجار السوء • لاعتقاده أنهما قتلا جورث الراعى الأمين وسرقا قطيعه الثمين ، ثم قال :

ـ ولكنى اقسم بالقديسين جميعا انى سوف انتقم . سأرفع شكواى الى مجلس الوصاية على العرش . والى المجلس الكبير . فلي أصدقاء بين ذوى النفوذ • وسأتحدى ذلك النورماندى فى مبارزة فردية وجها لوجه • أيظن لاننى وحيد وبغير ولد أننى فريسة

سهلة ؟! آه لو كان ولفريد بجانبى ! لماذا اصر ذلك المأفون على عنـــاده ؟

ويبدو أن تذكره ابنه الغائب النازح عن الديار غير حالة سيدريك النفسية من الغضب الى الحزن . وفجأة دوى صوت نفير أخرجه من كآبته فصاح :

ـ اسرعوا الى الباب ايها الخدم وانظروا من يكون هؤلاء القادمون !

وبعد لحظات قليلة جاء احد الحراس وانبأه ان اسقف جورفو والفارس النبيل بريان قائد منظمة فرسان المعبد البواسل ، قد حضرا ومعهما حاشية كثيرة العدد . وانهما يلتمسان الضيافة مدة الليل ففى الصباح يجب أن يتوجها الى اشبى حيث تعقد حلقة للفروسية بعـــد غد

وصاح رب البيت السكسونى فى حنق :

ـ الاسقف أيمر والفارس بريان؟ كلاهما نورماندى ! لا بأس سوأء كانا نورمانديين أو سكسونيين ، فالضـــيافة فى روذرود مبذولة لكل طارق بغير صد ولا من !

وعلى الفور تلقى كبير الخدم الامر من سدريك كى يعد ثيابانظيفة ويوقد النيران ويجهز الماء ، ولا يدع شيئا مما يلزم لاستقبال هؤلاء القادمين على غير انتظار . وكان سيدريك قد سمع بالاسقف فهو مشهور بمرحه وحبه للبذخ والفكاهة . أما الفارس بريان فشهرة بسالته ومواقعه فى الارض المقدسة عبرت البحار وذاعت فى سائر الاقطار . ولكن هذه البسالة لم تكن الاساس الوحيد لشـــهرته المستفيضة . فمن عرفوه وصحبوه فى الاراضى المقدسة اثناء الحروب الصليبية ، يذكرون عنه من المغامرات ما يلقى ظلال الريبة القاتمة على سيرته الخلقية . وقلبه الذى لا يعرف الخوف ، يقال كذلك انه لايعرف معنى الرحمة

ولكى يجنب الاميرة روينا غضاضة مؤاكلة شخصين قد يكونان كريهين اليها . أو أحدهما على الاقل قد يكون مصدر اشمئزازها ، أمر وصيفتها الجيثا أن تبلغها أنهابالخيار فى أن تلزم حجرتها . الا اذا وجدت فى النزول الى قاعة المائدة حيث الضيوف تسلية لهـا . فصاحت الوصيفة :

ـ انى واثقة انها ستبادر بالقدوم · فهى تتلهف على كل فرصة تسمع فيها شيئا من انباء فلسطين ..

فانتهرها سيدها بغضب . وأسرعت الفتاة لتحمل الرسالة الى مولاتها · وانصرف سيدريك الى خواطره الخاصة برهة وجيزة · واذا الباب يفتح فجاة ويدخل منه أربعة من الخدم يحملون المشاعل امام الضيفين الكبيرين



الفصل الرابع

على المائدة

وكان الاسقف ايمر وقائد فرسان الهيكل قد انتهزا فرصة أوامر رب البيت الى خدمه بتهيئة الماء لهما للاغتسال ، واعـــداد الثياب النظيفة ، فظهرا فى أحسن مظهر مستطاع بعد رحلة عاصفة كهذه الرحلة • واختفى من صدر الفارس بريان ذلك الزرد من الفولاذ لتظهر اناقته فى ثوب من الحرير الابيض الناصع . واختفت خوذته وقبعته ، ليبدو رأسه عاريا وقد زانه ذلك الشعر الناعم الغزير المتموج الذى يميل الى صفرة الذهب ، فاتسق لونه مع بشرته الحماسية • اما مشيته وهو يجتاز القاعة الواسعة الأرجاء فقل بين خطوات الرجال ما يضارعها مهابة ووقارا وجلالا

اما ذلك الراهب القروى الرقيق الحال الذى قادهما فى شعاب الغابة وقد تعرضا للضلال عن الطريق ، فلم يكن قد غير شيئا من ثيابه وبزته • فبدا للعين فى مظهر الحجاج المألوفين فى ذلك العهد ، عليه ثوب طويل سابغ من صوف أسود خشن ، وفى يده عصاة طويلة ، لها كعب من الحديد . وعلى رأسه قبعة مستديرة عريضة الاطراف• امامشيته فليس فيها من الزهو أو الاعتداد شيء• فكأنما كان حريصا على أن يراه الناظرون أشد تواضعا وأكثر تطامنا من مدلول ثوبه • فهو يتوارى عن العيون ويتسلل تسلل من يريد الا تأخذه الابصـــار • واتجه الى مقعد صغير من الخشب يظلله رف المدفاة فى الطرف القصى المنخفض وانصرف الى تجفيف ثيابه

أما سيدريك فما ان دخل عليه ضيوفه قاعة المائدة حتى نهض عن مقعده المرتفع وظل واقفا فى مكانه يرحب بهم ، ويعتذر عن عدم التقدم نحوهم لاستقبالهم ، بأنه نذر لله نذرا الا يخطو أكثر من ثلاث

خطوات نحو شخص من الاشخاص . اللهم الا ان يكون ذلك الشخص من سلالة تجرى فى عروقها دماء ملوك السكسون ! وكان يتكلم باللغة السكسونية ، فاستطرد مسدوكا :

ـ ارجو ان يمهد السيدان العظيمان لى العذر لمخاطبتي اياهما بلغتي القومية ، مع أنني أفهم تمام الفهم اللغة النورماندية . ولكن لغة السكسون هى اللغة الوحيدة التى تتمتع بحق السيادة والرعاية تحت سقف هذا البيت !

وانحنى الضيوف الثلاثة اقرارا واجابة على تحية صاحب البيت وعندئذ أمر سيدريك خدمه بتقديم العشاء . واذا بعبديه جورث وامبا يدخلان القاعة . فالتفت اليهما مولاهما وتوعدهما بالجلد الموجع جزاء هذا التأخير فى العودة الى الدار . فانبرى جورث يؤكد لمولاه ان قطيع الخنازير عاد الى الحظيرة كاملا غير منقوص . فلم يستطع سيدريك ان يستمر فى غضبه على عبده الأمين راعى الخنازير . وسرعان ما تبدد عن جبينه قطوب الغضب كما تتبدد السحائب من سماء أشرق عليها ضياء الشمس

والواقع انه لم تكن برب البيت حاجة الى ما نطق به من الاعتذار لدى ضيوفه عن ضآلة الطعام وعدم لياقته بالاكلين الكرام : وما الى ذلك الكلام من مالوف المجاملة : فقد كانت المآكل منوعة جيدة لطهو ، فاخرة الصنف وفيرة الكمية . فالسكسون منذ قديم الازل يباهون الامم أول كل شىء بأنهم اكثر خلق الله اقبالا على الطعام وقدرة على المضغ والالتهام . وانه ما من احد يدانيهم فى تجرع اكواب الشراب حتى كأنهم دنان لا يمتلىء لها جرم ..

وكانت الايدى قد بدأت تمتد الى الصحاف . واذا بالاميرة روينا تظهر على عتبة القاعة . فانتفض سيدريك واقفا وقد اعترته دهشة يسيرة ، وخف الى لقائها عند الباب ، وقادها فى احتفال واحتفاء الى مقعدها الكبير العالى المجاور لمقعده عند وسط المائدة الكبرى . وتركزت على الفور جميع الابصار عليها فى ذلك الاعجاب الصامت : الذى تحرزه المحاسن الساحرة ، والنبالة الباهرة ، فى أى مكان توجد فيه بيد أن ذلك الاعجاب على صمته وتهيبه كأنما كان يخدش حياءها فمدت يد الخفر الى قناعها الشفاف المنوط بغطاء راسها فاسدلته

على ذاك الوجه الجميل

وعندئذ قال الاسقف فى دعابة مهذبة :

ــ ارجو من الاميرة روينا التى انزلت الآن العقاب بالمعجبين بها على جسارتهم التى لم يملكوا التحكم فيها ، ان تكون اكثر تسامحا واقل امعانا فى القسوة والصرامة ، اثناء الحفلات التى سنقام بمناسبة حلقة آشبى

ولم تجب الاميرة ، بل كان سيدريك هو الذى أجابه قائلا :

ــ ليس من المؤكد حتى الآن اننا سنشهد تلك الحفلة او الاحتفالات فأنا لا أحب تلك الاجتماعات التى يكثر فيها التباهى ، ويطلق فيها العنان للغرور الباطل ، ولم يكن لاجدادنا الميامين بأمثالها عهد

فابتسم الاسقف ابتسامة مهذبة وقال :

ــ نرجو ايها السيد أن تكون صحبتنا المتواضعة حافزا ، أو على الاقل مرجحة لديكم لكفة حضور تلك الحفلات . فتكون فرصة ننعم فيها بصحبتكم فى الجزء الباقى من الرحلة الى هناك . وخصوصا ونحن فى زمن اضطرب فيه الأمن ، وفى مثل ذلك الزمن لا يستهين الانسان بحراسة فارس بطل مثل السير بريان دى بواجلبار

فانحنى الفارس بريان وقال فى تواضع مصطنع :

ــ انى اضع حراستى تحت تصرفكم . وفى انتظار ذلك الشرف اسمح لنفسى بتجرع هذه الكأس نخب مضيفتنا الفاتنة وانا اعلن على الملأ سعادتى بأن اكون خادمها المخلص الأمين !

وعندئذ قالت الأميرة روينا :

ــ انت وما اردت أيها السيد الفارس ! وسأضع على الفور ولاءك موضع الاختبار فأسألك عن آخر انباء فلسطين

ــ ليس لى بهذه الانباء كبير علم . اللهم الا ما تواتر من التأكيد لنبأ اعلان الهدنة بين جيوش الصليبيين وصلاح الدين

وفى هذه اللحظة قوطع الفارس بريان بصوت حاد ، هو صوت المهرج وامبا الذى صاح به :

ــ آه ! هدناتك هذه أيها الفارس تجعل من شبابى شيخوخة طاعنة فى السن !

فالتفت سيدريك اليه وسأله بلهجة من ينتظر فكاهة طريفة :

ــ وكيف ذلك ايها الاحمق ؟

ــ عد على أصابعك . لقد سمعت حتى الآن عن ثلاث هدنات بين صلاح الدين والصليبيين ، مدة كل هدنة منها خمسون من السنين ، فمجموعها حتى الآن مائة وخمســـــون . فكيف لا اكون على ذلك الحساب شيخا حانى الظهر ان لم اكن رفاتا تضمها القبر !

فحملق الفارس فى المهرج وتذكر صاحبه الذى لقيه فى الغابة وسأله عن الطريق وقال له :

ــ الارجح يا هذا انك لن تموت من الشيخوخة بل من علقـــة ساخنة ، ان تجاسرت مرة اخرى على اضلال المسافرين النبـــلاء كما فعلت بنا هذا المساء !

فصاح سيدريك بغضب :

ــ ما هذا الذى اسمع ايها المعتوه ! ايبلغ بك الحمق أن تضلل المسافرين وتعرضهم للاخطار ؟ لأجلدنك !

ــ على رسلك ياعم ! يجب ان يكون العقاب على قدر الخطأ . وانا لم اخطىء الا نصف خطأ لا يستحق الا نصف جلدة . ترفع السوط فوق راسك وتهبط به فى الهواء الى منتصف الطريق نحو ظهرى ، فتكون قد اخذت حقك واخذت حقى ! فكل ما فعلته انى قلت لمولانا الاسقف حين سألنى عن الطريق الى هنا « سر يمينا » وفى الوقت نفسه اشرت بيدى الى جهة اليسار . فان كانت قد كذبت يدى فقد صدق لسانى . اما ان اردت ان تعرف شخصا اخطأ خطأ يستحق العقاب حقيقة فأنا ادلك عليه !

ــ ومن هو أيها المجنون ؟

ــ هو العاقل الذى يسأل مجنونا عن الطريق !

وفى ضجة الضحك أعلن كبير الخدم وصول طارق يطلب الضيافة ولابد أن ذلك الطارق الغريب كانت له حالة خاصة . لان كبير الخدم مال فوق اذن سيده وأسر اليه شيئا . وسرعان ما عرف أن القادم يهودى . هو المدعو اسحاق من يورك . وانه يطلب الاذن بالمثول . فظهر على الاسقف وقائد فرسان الهيكل عدم الارتياح لفكرة انضمامه الى جماعتهما اما سيدريك الذى كان حريا فى غير هذا الظرف ان يظهر النفور من سليل شعب اسرائيل الموصوم فى تلك الفترة باللعنة والنبذ

فقد حرص أن يواجه هذين النورمانديين بما للضيافة من حقوق مقدسة . فكانت لهذه الحجة الكفة الراجحة

ودخل الاسرائيلى من غير حفاوة على الاطلاق . دخل مرتعدا مترددا خائفا ينحنى ويحيى جهة اليمين وجهة اليسار . وكان اسحاق شيخا مسنا نحيلا طويل القامة ، تسلل الى المائدة الصغرى وفوق راسه عمامة قاتمة اللون ، ومعطف فضفاض يكسو جسمه . وكانت العادة المتبعة ان تكون القلنسوة الشبيهة بالعمامة القاتمة هى العلامة التى تميز اليهود من المسيحيين فى بلاد أوروبا لذلك العهد

وما ان دخل حتى أسرع الضيوف الثلاثة يرسمون على وجوههم علامة الصليب فى فزع واستعاذة بالله والروح القدس . واما الخدم من اتباع الفارس بريان الذين احاطوا بالمائدة الصغرى ومنهم بعض الشرقيين فانكمشوا جميعا نافرين من جيرته . واخذ المسكين يجول بعينيه المذعورتين ينقب عن ركن يقبع فيه ليجفف ثيابه . وعندئذ ادركت الشفقة ذلك الراهب الريفى الجالس فى ظل المدفأة فتخلى له عن مكانه قائلا :

ـ أيها الشيخ لقد جفت ثيابى . واصبت من الطعام ما سد جوعى اما أنت فثوبك مبتل وجوفك خاو !

ولم ينتظر الراهب حتى يسمع دعواته وشكره ؛ بل اتجه الى الجانب الآخر من القاعة

وكان سيدريك ومن معه قد انصرفوا عما يدور فى الجزء الادنى من الحجرة وانهمكوا فى تبادل الاحاديث ، وسرد المغامرات التى تدور حول موضوع الصيد أو المعارك . وانحلت عقدة لسان سيدريك فاخذ يسرد ذكريات شبابه . واندفع يشرب النخب تلو النخب . واخيرا صاح :

ـ أيها السيد قائد فرسان الهيكل ! ساشرب نخب جميع المحاربين بغير تفريق بين أجناسهم ولغاتهم. أولئك الذين أبلوا احسن البلاء فى فلسطين !

فقال الفارس بريان مشيرا الى شارة الفرسان الهيكليين على كتفه:

ـ ومن يكون هؤلاء ان لم يكونوا أبطال معركة القبر المقدس ؟ !

فصاح الاسقف :

ـ بل هم فرسان مالطة ! فمن بينهم اخ لى !

فقالت الاميرة روينا :

ـ الا يوجد فى صفوف الجيش الانجليزى شخص يستحق اسمه ن يذكر الى جانب من تذكرون من فرسان الهيكل او فرسان مالطة ؟

فقال الفارس بريان :

ـ عفوك يا سيدتى ! ان الملك ريتشارد ملك انجلترا صحب الى فلسطين جمهرة من الفرسان الشجعان ، لم يتخلفوا عن احد فى البسالة الا اولئك الذين نذروا طول حياتهم حماية تلك الارض المقدسة

وعندئذ صاح الراهب الريفى الحاج الذى سمع تلك العبارة فاحتقن وجهه وتملكه الغيظ :

ـ بل لم يتخلفوا فى البسالة عن احد كائنا من كان !

فتلفت الجميع الى ذلك الموضع من القاعة الذى انبعث منه ذلك الصوت المتحدى والاحتجاج العنيف . وكأنما تبين الراهب الحاج فى ظراتهم تساؤلا خفيا ، فاستطرد :

ـ انى لا اقرر شيئا سوى الحقيقة الواقعة . وانى مستعد لتقديم البرهان . فقد رأيت بعينى هاتين بعد الاستيلاء على عكا كيف وقف ريتشارد قلب الاسد مع خمسة من فرسانه يتحدى الجميع . فما تصدى لهم أحد الا جندلوه يأكل من تراب الارض . واشهد أن من بين من تصدوا لريتشارد وفرسانه سبعة من فرسان الهيكل اندحروا شر اندحار . ولا أرى الفارس بريان يستطيع أن يكذبنى فى ذلك !

وان القلم ليعجز عن وصف الغضب الشديد والغيظ والتوحش الذى ارتسم على ملامح قائد فرسان الهيكل . ولكن سيدريك كان مسرورا غاية السرور بسماع ذلك الاطراء العظيم لبسالة فرسان انجلترا السكسون فصاح بالراهب يستزيده ويستعيده :

ـ لك منى هذا السوار الذهبى هدية خالصة ان ذكرت لى اسماء هؤلاء الخمسة من الصناديد المغاوير !

فقال الراهب بأناة وهدوء :

ـ سأذكر لك اسماءهم ولا اقبل منك ولا من غيرك هدية . فان ذكر اسمائهم له من رنة السرور فى قلبى ما يزيد على اثمن الهدايا

والهبات . ان أول هؤلاء الفرسان مقاما وشهرة هو الفارس الصنديد ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا . . .

ـ وانى لاغفر له انه سليل وليم المغتصب ! ومن سواه ؟

ـ وثانى الفرسان هو كونت لايسستر . واما الثالث فهو الفارس توماس مالتون . واما الرابع فهو الفارس فولك دويلى . واما الخامس الفارس ادوين تورن هم .

فصفق سيدريك بيديه طربا وصاح :

ـ ان كلا منهم ينحدر من نسب سكسونى صريح ! مرحى ايهـــا الراهب ومن يكون الفارس السادس ؟

فتردد الراهب قليلا ثم قال :

ـ اما السادس فكان فارسا أقل من هؤلاء شهرة واظنهم تخيروه ليتم العدد . فان اسمه الخامل راح من ذاكرتى

وعندئذ قال الفارس بريان قائد فرسان الهيكل :

ـ اشكر لك ايها الحاج رغبتك فى التستر على وقائع ذلك الفارس واسمه فان سوء حظى وكبوة جوادى جعلانى اســـقط امام هجمة ذلك الفارس على الارض . ان ذلك الفارس الذى تدعوه خاملا مجهولا لهو كفء على حداثة سنه وطراوة عوده لأى صنديد من فرسان الصليبيين واسم هذا الفارس ولفريد ايفانهو . وما من رغبة أشـد لدى من ملاقاة ذلك الفارس مرة اخرى وجها لوجه . وسوف تكون حلقة اشبى فرصة مواتية لذلك اللقاء . فليته يلقانى . ولسوف أترك له اختيار السلاح للمبارزة

فقال الراهب فى أناة وهدوء :

ـ ما أعلمه عن هذا الفارس الشاب يجعلنى ضامنا لقبوله هـذا التحدى على الفور لو انه كان هنا . ولو قيض لايفانهو أن يعود من فلسطين فانى اضمن لك ان يلاقيك فى الميدان !

فزمجر الفارس قائلا :

ـ ياله من ضمان بديع ! وأى رهن تستطيع أن تقدمه ؟

ـ هذا الاثر المقدس !

واستخرج الراهب من صدره حقا صغيرا من العاج يحتوى على قطعة من الصليب المقدس الحقيقى . فلما رأى الاسقف وجميـع

الحاضرين ذلك الأثر أسرعوا يرسمون علامة الصـــــليب فى ورع وخشوع . وعندئذ خلع قائد فرسان الهيكل من عنقه سلسلة ثقيلة من الذهب الخالص والقى بها فوق المائدة قائلا :

ــ وهذا رهنى . فليتفضل الاسقف بضمه الى رهن هذا الحاج المجهول . واذا تجنب ولفريد ايفانهو ملاقاتى سأصمه بالخيـــانة والجبن فى جميع معسكرات اوروبا وحصونها !

فقالت الاميرة روينا التى ظلت ملتزمة الصمت حتى تلك اللحظة :

ــ لن تكون بك حاجة الى ذلك . فليس هناك صوت أولى من صوتى بالارتفاع دفاعا عن كرامة ذلك الغائب . وانى أؤكد لك أن الفارس ايفانهو سيتقبل تحديك عن طيب خاطر

ولما كان سيدريك نهبا لمشاعر متناقضة فى تلك اللحظة ، من الفخر والكبرياء والاغتباط والحرج ، فقد وجد من واجبه ان يوجه اللوم الى الاميرة روينا علنا لتدخلها الكريم فى هذا الحديث دفاعا عن ابنه ايفانهو . فان ذلك الابن قد عصاه ، فاستنزل على رأسه صـــواعق الغضب الابوى . فما كان ينبغى للاميرة ان تنسى ذلك

وبعد ذلك التفت سيدريك الى الاسقف ورجاه ان يحتفظ بالرهينتين ثم أحب ان يجر ذيول النسيان على تلك المشادة فطلب من ضيوفه استئناف المادبة من حيث انقطعت بيد ان الضيفين الكبيرين اعتذرا بالتعب بعد الرحلة ، فالح رب البيت عليهما فى شرب كاس اخيرة ، فقبلا ، ثم نهضا الى مخدعيهما

وعندما مر الفارس بريان باليهودى اسحاق قال له :

ــ أيها الكاب الكافر ! اتنوى الذهاب الى الحلقة ؟

فأجاب اليهودى فى تذلل :

ــ ذلك هو مرادى يا مولاى

ــ طبعا . . طبعا . . ستذهب لتقتنص فى حبائلك الرجال والنساء أيها المرابى . وتملأ من دمائهم كيسك بالدنانير !

فصاح اسحاق وهو يضم قبضتيه :

ــ قسما باله ابراهيم ! انى لا امتلك شيئا . والثوب الذى أرتديه استعرته من قريب لى !

ــ الويل لك ايها الكذاب الفاجر !

ثم قال الفارس لاتباعه الشرقيين كلاما بلغة مجهولة . فلم يستطع اليهودى ان يفهم شيئا منه . وكان مذهولا لهذا التحرش الفظ وهو فى ضيافة رجل كريم . فلما رفع عينيه بعد اطراق كان قائد فرسان الهيكل قد انصرف الى مخدعه فى صحبة الاسقف أيمر لقضـــاء الليل



الفصل الخامس

افتح الباب!

كان على الراهب الحاج واليهودى اسحاق أن يقنعا بخزانة ضيقة يقضيان فيها ليلتهما • لا يفصل فراشيهما الا حاجز من خشب البلوط • وتجاور هذه الخزانة الحقيرة خزانة اخرى حقيرة يبيت فيها راعى الخنازير جورث • ولم يظهر على الحاج أى شىء يدل على ضيقه بدلك المأوى المتواضع • لان ما نذره من الصدقه والتقشف واذلال النفس كان ييسر له تقبل كثير من الامور ، التى قد يراها سواه من الناس مهينة غير مقبولة • ومن جهة أخرى قد تكون لديه أسباب أخرى !!

ومهما يكن من شىء فان الراهب استلقى على فراشه بثيابه كاملة ولم يلبث أن غرق فى النوم أو لعله تصنع النوم حتى بزوغ الاشعة الاولى من ضياء الفجر • وعندئذ نهض ودخل عمدا الى الجزء الآخر من الخزانة الذى ينام فيه رفيقه ، ومسه بعصاه • فدهش اسحاق دهشة عظيمة وروع من نومه فزعا • واسرع يضم اليه ثيابه الملقاة على الفراش

ـ بحق اله ابراهام ، ماذا تريد منى ؟ ارحم شيخا مسكينا لا يملك من الدنيا دانقا ولا درهما

ـ لا تخش شيئا يا اسحاق ! فانى جئتك كما يأتى الصديق • جئت لاقول لك انه ينبغى عليك ان تغادر هذا المنزل على الفور

ـ لماذا ؟ وكيف ؟

ـ لقد شاءت رحمة المولى عز وجل أن أسمع بالامس تلك العبارات التى تبادلها فارس الهيكل مع اتباعه وعبيده المشارقة باللغة العربية

ـ ماذا قالوا ؟ ماذا يريدون مني ؟

ـ مرادهم أن يترقبوا رحيلك من هنا لينقضوا عليك ويسلموك الى أيدى جبين العجل أو جار السوء • فالفرار الفرار النجاة النجاة! نعلى ذلك تتوقف حريتك أن لم تتوقف كل حياتك !

ـ يا اله موسى ! سيمزقون أشلائى ويطئونها بالخيل ! انى لاكاد احس سنابكها فوق عظامى !

ـ كفى فزعا يا اسحاق ! فانى كفيل أن أحميك واقودك الى خارج حدود الغابة • فانى أعرف مسالكها ودروبها خير معرفة • ولكن ينبغى الا تضيع دقيقة واحدة • فى البكاء والتباكى !

وعلى الفور ذهب الراهب الحاج الى خـزانة راعى الخنـــازير وصاح به :

ـ انهض ياجورث ! انهض وافتح لنا الباب !

وضاق جورث بذلك الضيف الحقير الذى لا يكلف نفسه احتشاما معه • فتظاهر انه لم يسمع • فما كان من الحاج الا أن مال فوق أذنه وقال بضع كلمات ، كان لها تأثير السحر على جورث ، فحملق بعينيه وفغر فاه • ولكن قبل أن يتكلم كان الحاج قد رفع سبابته الى فمه يشير اليه بالتزام الصمت والكتمان • ثم قال :

ـ هيا افتح الباب ياجورث • وخذ بغلة اسحاق ، واختر بغلة أخرى لى أنا !

ولم يحوج جورث صاحبه الحاج الى تكرير أوامره • وسرعان ما كان اسحاق يمتطى ظهر بغلته فى خفة لا تنتظر اطلاقا من رجـــل فى مثل سنه • فلا شك انه كان متلهفا الى الابتعاد عن نفر لايضمرون له مودة • ووضع أمامه فوق السرج كيسا أقرب الى حجم الغرارة وأحاطه بذراعه فى عناية ، وهو يقسم من غير سؤال أن الغـــرارة لا تضم الا ثيابا

أما الحاج فقدم يده الى جورت فقبلها فى احترام عميق لا مزيد عليه • ثم ابتعد الفارسان عن انظاره ••

والحق ان مخاوف اسحاق لم تكن كلها أوهاما • فاليهود فى ذلك الحين كانوا يلاقون اضطهادا لا مزيد عليه • تفرض عليهم الاتاوات والفديات من جميع السادة • وكان النبلاء لا يتورعون عن استعمال

جميع ادوات التعذيب ، لاستخراج الاموال المدفونه والمخبوءة لدى هؤلاء اليهود • وهى أموال طائلة يتوارثها اليهود جيلا بعد جيل ، يحرصون عليها اشد الحرص • ولا يعادل حذق اليهود فى كسب الاموال واختزانها غير بخلهـــموشحهم

وبعد أن سلك الراهب مع اسحاق طرقا ملتوية فى الغابة بسرعة فائقة ، قطع الحاج الصمت قائلا :

ــ هانحن قد أصبحنا على مرمى البصر من شيفلـــد • وينبغى أن نفترق هاهنا

ــ لن نفترق قبل أن تتلقى شكر اليهودى المسكين الذى انقذته

ــ لقد قلت لك من قبل أنى لا أريد منك جزاء ولا شـــكورا • ولكن مادمت مصرا على جزائى • فكل رجائى ان يدفعك تذكار خدمتى هذه الى التخفيف عن مسيحى من مدينيك فلا تطرحه فى السجــن لتأكله قيود الحديد

ــ على رسلك قليلا ايها الشاب الطيب القلب • ان الله يعـــلم مقدار فقرى وخصاصتى • فما بلغ أيوب فى محنته ما بلغته من الفاقه • ومع ذلك تتوق نفسى الى خدمتك بوجه من الوجوه • فهل تسمح لى أن اخمن ما أنت فى أشد الحاجة اليه الآن واستطيع على فقرى ان أيسره لك ؟

ــ وماذاك ايها اليهودى ؟

ــ انك بحاجة الى جواد أصيل وسلاح ودرع وعدة حرب !

فانتفض الحاج • لان اليهودى أصاب كبد الحقيقة وصاح :

ــ أى شيطان أسر اليك بهذا الخاطر ؟

ــ لا عليك من هذا ! فقد ندت منك بالامس كلمات قلائل لكنها على قلتها كالشرر الذى ينبعث فى ظلمة الليل عن أحجار ملقاة على الطريق فينم ذلك الشرر عن حقيقة معدنها • والقبر موطنه التراب ! ثم أن تحت ثياب الحاج المتواضعة هذه سلسلة من الذهب ، وغمد سيف من الذهب ، ومهماز جواد من الذهب • وقد رأيتها تلمع هذا الصباح عندما انحنيت فوق فراشى !

فابتسم الحاج وقال مداعبا :

ـ ترى لو نظرت عين فضولى تحت ثيابك يا اسحاق ، أى شىء ستراه ؟

فاربد وجه اليهودى وقال بسرعة :

ـ فلنترك الحديث فى هذا الموضوع !

ثم تناول أدوات الكتابة التي لا تفارقه فى تنقلاته ، وأخذ ورقة كتب فيها بضعة سطور باللغة العبرية ثم قدمها الى الحاج قائلا :

ـ اسمع ايها الحاج • ان الجميع فى مدينة لايسستر يعرفون بالاسرائيلى الثرى جيرام ، فهـو يمتلك ست ترسانات ولديه خير أدوات الحرب والدروع • وفى حظائره عشرة جياد مدربة على القتال وسيقدم اليك ما يلزمك من عدة لحلقة الشبى • ومتى فرغت من تلك الحلقة عليك ان ترد الى جيرام هذه العدة الثمينـــة أو تدفـــع قيمتهـــا

ـ ولكن الحلقة قد تكون نتيجتها هلاكى • وقد يعطب الدرع أو يقتل الجواد • فكيف يتسنى لى أن أعوض صاحب الحق فى التعويض؟

فظهرت على اليهودى علائم الصراع النفسى الشديد • وأخـــيرا رجحت كفته الخيرية فقال له بحدة •

ـ لا بأس لا بأس ! دعنى أذهب الآن • واذا حدثت خسارة فأنت برىء الذمة من التعويض وسيسامحك جيرام كرامة لقريبـــه اسحـــاق

وافترق الاثنان ، فاتجـه كل منهمـا الى شـــفيلد من طريقين مختلفـــين



الفصل السادس

بنت إسحق اليهودي

وكانت غيبة الملك ريتشارد قلب الاسد الطويلة قد أصابت بلاده بأضرار جسيمة وخطوب وخيمة . فكانت هذه الفترة بالذات من أسوأ العهود التي مرت بتاريخ انجلترا كله . وكانت ادارة المملكة وديعة في يد شقيقه الامير جان ، الذي يعرف في التاريخ باسم جان الذي لا يملك أرضا . وهو شاب طائش نزق محب للملذات فصار العوبة في يد بطانة جمعتها حوله الاطماع . فلا عجب أن يكون دائما مفلسا بحاجة الى مال . فيعقد القروض بعد القروض بفائدة مرتفعة السعر في كثير من الاحيان ، مما أرهق كاهل الخزانة البريطانية

وكان هذا هو سبب احتكاكه في الغالب بكبار الاثرياء من اليهود فلا يتورع عن حبسهم واستخلاص الاموال منهم عند الحاجة . يضاف الى تلك المتاعب ما كان يثيره العصاة الخارجون على القانون وما تحدثه الاوبئة الفتاكة من نقص شديد في تعداد الشعب . فليس سرا اذن ان الامة الانجليزية كانت غير سعيدة بحكومة الامير جان ولكن هذا الشعب الطيب كان يحب الالعاب والرياضة ، ولذلك كان يتغاضى عن كراهته للحكومة القائمة في المناسبات الهامة من قبيل حلقة أشبي . ويظهر حماسة شديدة لما يدور فيها من مبارزات ، رغم كراهته للطبقات الممتازة التي تقيم تلك الحلقات وتتبارى فيها

وكان المكان المختار للحلقة في هذا العام مرعى من المراعي الواسعة عند مشارف المدينة الصغيرة . والمنظر الطبيعي في تلك البقعة من أجمل ما خلق الله . والارض مستوية استواء تاما يجعل السكر

والفرميسورين للفرسان المتبارين · وقد أقيم سياج قوى حـــول الحلقة فيه أبواب تقوم عليها حراسة شديدة · وفى مؤخرة الميدان أقيمت منصة عالية تعلوها خمس رايات ملونة ، هى رايات الفرسان الخمسة الذين أقاموا تلك الحلقة · وفى وسط الميدان خيمة واحدة اتفقت جميع الآراء على تركها لاقامة الفارس بريان دى بواجيلبار فان شهرته العالية المدوية كفلت له تلك المكانة الرفيعـــة · وعن يمينها خيمتان لجبين الثور ، ولبارون آخر من بارونات المنطقة · دو هوجو · وعن يسارها خيمتان احداهما لفيليب جار السوء · والاخرى للفارس رالف أحد فرسان القديس يوحنا · وهؤلاءهم الخمسة الذين يديرون الحلقة

ومن حول الميدان منصات متعددة يتزاحم حولها اوساط الناس أما سواد الشعب فقد احتشد واقفا على العشب فى مـــكان ما وراء السياج وفى الصدر منبر عال يعلوه الشعار الملكى ، وفى مواجهة المنبر منصة عالية لكبار النبلاء والنبيـــلات ووصـــيفات الشرف وقد ارتدى الجميع أفخر اثوابهم واتخذوا أبهى زينتهم · وتوسط هؤلاء واولئك عرش مكسو بالحرير الاخضر والوردى خصص لملكة جمال الحلقة

ولا يدرى أحد حتى الآن من ستكون تلك الملكة ؟ فانها تختـــار اختيارا · وشيئا فشيئا امتلأت المقاعد والمدرجـــات · وارتفعت همهمة عالية من الجمهور المحتشد · ومن بين هؤلاء الذين دخلوا اليهودى اسحاق الذى تقدم حتى الصف الاول ليجلس ابنته ربيكا ولم يظهر عليه أى ارتباك او خجل أمام نظرات الناس · فهنا يشعر بالثقة من نفسه لان العلاقة بينه وبين الامير جان طيبة على حسب اعتقاده لانه أقرض ذلك الامير مبلغا كبيرا منذ مدة قريبة · ولكن الناس اخذوا يتذمرون · وصاح صائح جرىء منهم :

ــ فلنترك العنكبوت يمتص الدماء فى الظل · امـا اذا برز فى ضوء الشمس فلنسحقه بلا رحمة !

فصفق الجمهور تصفيقا حادا لتلك التورية الفاضحة · وكان اليهودى حريا أن يفكر فى الانسحاب لولا أن جميع الانظار تركزت فى تلك اللحظة على الامير جان الذى وصل · وكان الامير فارســا

انيقا جميلا ، يحيط به عدد من ابهى الفرسان طلعة وزينة وحف به في الصف الاول الاسقف آيمر وقائد حرسه موريس ومستشاره والدمـــار

وأخذ الامير يختال جيئة وذهابا ليتلقى التحيات والهتافات • ولفت نظرة ماثار حول اسحاق من ضجة فتطلع وعرف على الفـور تاجره اليهودى ، وقال لمن حوله فى دهشة :

ـ انى اعرف هذا الرجل • ولكن بحق الشيطان من هى هـذه الحسناء التى فى صحبته ؟!

وكانت ربيكا فى زينتها الشرقية الفاخرة تكاد تخلب الالباب • فسأل الامير جان اسحاق عنها ، فقال على الفور :

ـ انها ابنتى يا صاحب السمو !

ـ سواء كانت فتاة أو امرأة ، فان جمالها يخول لها الحـق فى الجلوس فى الصف الاول ! من هؤلاء القرويون السكسون الـذين أراهم هنا ؟ فليتراجعوا قليلا ليفســـحوا مكانا لامـــير المرابين ووريثته الفاتنة !

وكان الامير يشير بذلك الى سيدريك والى أثيلستان وأسرتيهما واثيلستان هو آخر سلالة ملوك السكسون القدامى الـــذى كان سيدريك ينوى تزويجه من ربيبته العزيزة الاميرة روينا • فثـــار غضب اثيلستان على الفور لهذا الامر الذى أصـــدره الامير جـــان وتسمر فى مكانة مذهولا • فصاح الامير جان مخاطبا قائد حرسه :

ـ ماذا دهى هذا السكسونى راعى الخنازير ؟ أنائم هو أم أصم ؟ انخسه يا براسى بسن رمحك !

وبادر قائد الحرس الى تنفيذ أوامر الامير متلهفا الى التشفي من سكسونى ، فمد رمحه الى المكان المقصود • ولكن ســـيدريك كان أسرع من البرق فى امتشاق حسامه ، وبضربة واحدة قصم زق الرمح المصنوع من الخشب • فارتفع هتاف الجمهور الانجليزى من العامة وتصفيقهم الى عنان السماء• وشارك فى التصفيق والهتاف حامل سهم كان واقفا عن قرب • فاغتـــاظ الامير جان وصـــاح به فى غضب :

ـ فيم كل هذه الضجة والحماسة ؟

ـ انى لا اتوانى عن الاعجاب بالبسالة الخارقة والضربة الموفقة !
ـ هكذا ؟ وهل تحسن اصابة الهدف ؟
ـ عن بعد بعيد
ـ اذن اقسم بالقديسة جيزيل اننا سنرى الآن مقدار مهارتك يامن نجعل من نفسك حكما على مهارة الآخرين · وأنتم ايها الكلاب السكسون افسحوا مكانا لليهودى اسحاق · سيا ايها الكلب الكافر تقدم ! وسأرى من يجسر على ايقافك !

وكانت انظار الامير جان مركزة على سيدريك بالذات · فصاح وامبا المهرج
ـ أنا أوقفه !

وضحك الناس · ولم يحفل اليهودى به وصعد الدرج · فما كان من وامبا الا أن اخرج من تحت معطفه قطعة من الجامبون وقربها من لحية اليهودى · فتراجع اسحاق أمام هذه النجاسة مذعوراواختل توازنه فسقط يهوى على السلالم ، ووقف وامبا يشير بأصبعه الى صدره فى زهو المنتصر وقال :

ـ هيا ايها الامير يا ابن العم ! أعطنى الجائزة فقد هزمته فى مباراة شريفة ! أعطنى الجائزة يا ابن العم !

فلم يسع الامير الا أن يشارك الجمهور ضحكه ومرحه لتلك الدعابة العملية · وقال لليهودى :
ـ هيا اعطنى قبضة من الدنانير .

ولم يجرؤ اسحاق على المخالفة · فحل كيسه واعطى قبضة من الدنانير للامير جان · فاعطى قطعتين منها لوامبا ودس البقية فى جيبه · فصفق الجمهور اعجابا · لان سرقة يهودى تعتبر عملا صالحا فى نظر الجميع !

وبعد أن بدأ الاستعراض الاول للفرسان فى هيئة موكب تذكر الامير انه لم يختر ملكة الجمال فى هذه الحفلة · وهذه الملكة هى التى تتوج باكليل الغار هامة المنتصر فى المعركة · وتراءى له أن اختيار ربيكا رغم ديانتها اليهودية أمر لا مندوحة منه لفرط جمالها · وعبثا حاول رفاقه ارجاعه عن عزمه ذاك · لان الفرصة بدت له مواتية لاذلال أولئك السكسون الذين كانوا يرشحون

للعرش الاميرة روينا . وعنـدئذ تقدم قائد الحارس براسى بحل وسط وهو أن يترك عرش ملكة الجمال خاليا كى يختار الفارس الظافر بنفسه تلك الملكة . فرجحت كفة ذلك الرأى

وبعد ذلك صدرت الاوامر الى المنادين باعلان شروط المبـاريات وأولها أن الفرسان الخمسة الذين اقاموا الحلقة ينبغى أن يقبلـوا تحدى أى شخص يتصدى لمبارزتهم . وجعلت اشارات خاصه تتبع لاعلان التحدى ، ولتحديد نوع السلاح الذى يختاره المتحدى . فاذا لمس المتحدى درع الفارس من الفرسان الخمسة بحديد الرمح فمعنى ذلك أن المبارزة بينهما يجب ان تستمر حتى الموت . أما لمس الدرع بخشبة الرمح أو زقه فمعناه قيام المعركة بينهما بصورة ودية يكتفى فيها بأول دليل على الهزيمة ، وتكون الاسلحة فى هذه المـرة من نوع غير قاتل

والجائزة الموقوفة على المباراة جواد عريق نادر المثال . ومن حق الفائز أن يختار ملكة الجمال

وفى اليوم التالى أيضا يقام التحام مشترك لا يوضع له حـد الا بأمر الامير جان . أما فى اليوم الثالث فتقام مهرجانات شعبية لان الامير جان حريص على ارضـاء الجمهـور عسى أن يرضى عن سـياسته



الفصل السابع

الفارس المجهول

وكان المنظر فى الساحة متاعا حقيقيا لاعين الناظرين · ففوق المصات احتشد كل من تعرف لهم انجلترا قدرا مذكورا ، أو ثراء عريضا او جمالا . وكان المنادون يصيحون فى الابواق ، والشعب يردد الهتافات للفرسان البواسل ، والطبول تقرع فى دقات مثيرة مدوية . واخيرا فتحت الحواجز وتقـــدم خمسة فرسان اختيروا بالقرعـة فقرعوا بزقاق رماحهم الخشبيـــة دروع الفرسان الخمسة الـــذين أقاموا الحلقة

وغنى عن البيان ان الحاضرين رجالا ونساء اصيبوا عندئذ بخيبة امل كبيرة . لانهم كانوا يفضلون ان يشهدوا ملحمة حقيقية تكتنفها اخطار جسام وتثير فى النفس الارتياع والاهتمام

ومهما يكن من شيء ، فقـــد اصطف المتحـــدون صفا امام صف الفرسان الخمسة · وبدا التلاحم على ايقاع الطبول ونفخ الابواق وانتهى بعد قليل بغلبة الفـــارس بريان ورفاقه الاربعة . ودوى التصفيق ونفخ المنادون بالابواق تحية لهم . ثم اعقب ذلك فوج ثان وثالث ورابع من المبارزين ، وكانت النهـــــاية على الدوام واحدة لا تتغير · حتى أن ذلك النصر المستمر لفريق بعينه أصاب بالفتور همة المهاجمين . واخذ الجمهور يعرب عن استيائه ، لان جبين الثور وجار السوء وان كانا سكسونيين ، الا أن خبث سيرتهما جلب عليهما عداوة الناس . اما الثـــلاثة الآخرون فمن النورمانديين الاجانب المغتصبين . فعز على الشعب الانجليزى ان يظل ذلك الفريق ظافرا وتلهفوا على مناجز يذيقهم الاندحار

وانضم سيدريك الى راى العامة من الشعب وأظهر امتعاضه

وجعل ينظر بعين القلق الى جاره أثيلستان وكأنه يعرب له عن دهشته لانه وهو الممثل القوى الباس للسلالة السكسونية الصريحة ، والفارس المتمرس بجميع العاب الفروسية ، لا يبذل فى هذا اليوم ادنى مجهود لانتزاع النصر من فارس الهيكل ورفاقه المكروهين. بيد أن اثيلستان كان غير مكترث فلم يتحفز للرد على تلك المناشدة الصامتة

واخيرا قال سيدريك :

ـ يبدو أن هذا اليوم ليس من أيام سعود انجلترا العجوز ! ألا تحب يا مولاى ان تشرع رمحك من اجل انجلترا ؟

فاجابه اثيلستان :

ـ سأشرع رمحى غدا فى المعمعة . أما اليوم فذلك جهد ضائع

ولم يرق هذا الرد لسيدريك كثيرا ، اما وامبا فترجم كلام اثيلستان على طريقته قائلا :

ـ ان الانتصار على مائة افضل من الانتصار على اثنين . وان كان النصر على مائة فى ملحمة ودية عامة اسهل واسلم عقبى !

ولم يكن أثيلستان مشهورا بحدة الذكاء . ففهم هذا التعليق من المهرج على انه مدح خالص !

واخذت الحركة فى الحلقة تخمد وتتراخى شيئا فشيئا . حتى ان الامير جان انصرف عن المشاهدة الى التحدث مع حاشيته عن المادبة التى ستقام غدا مساء . واقترح ان يمنح جائزة اليوم للفارس بريان لما اظهره من تفوق وامتياز

وفجأة سمع فى الطرف الشمالى من الحلبة دق طبول متدارك . كأنه اعلان التحدى . فأرهفت الآذان واتجهت الاعين جميعها لترى من ذلك البطل الجديد الذى أمر بقرع الطبول انذارا للفرسان الخمسة بقدومه ؟!

ورأى الناس أمامهم فارسا عليه حلة من زرد سابغة ، مصنوعة من حلق الفولاذ المطعم بالذهب متوهجة فى أشعة الشمس . وعلى قدر ما أتيح لهم ان يتبينوا صاحب تلك الدرع الفاخرة ، بدا لهم البطل شابا فى عنفوانه ، له من الاندفاع أكثر مما فيه من البأس والقوة . وفوق درعه رسم سنديانة نزعت من جذورها ، وتحته باللغة الاسبانية كلمة

معناها الخليع او المحروم من الميراث . ومن تحت ذلك البطل جواد أسود اللون كالليل البهيم فاره المنظر يسوسه فى قدرة وحذق

وفى رشاقة ادى الفارس الجديد التحية للأمير والسيدات . وعلى الفور اتجهت اليه عواطف الجماهير اتجاهها الى البطل المنقذ لسمعة انجلترا . وصاح الصائحون من بين صفوف العامة :

ـ المس برمحك درع رالف ، فهو اقل الخمسة ثباتا فوق سرجه !

ولكن البطل المجهول اتجه نحو الخيمة الوسطى مباشرة . وبسن رمحه لابزقه قرع درع بريان فى عنف شديد انبعث منه رنين قوى . فذهل فارس الهيكل من تلك الجراة وخرج من خيمته مزمجرا :

ـ هل اعترفت بذنوبك هذا الصباح أيها الأخ ؟ أتتعجل منيتك الى هذا الحد ؟

ـ انى اكثر منك تأهبا للقتال حتى الموت الذى ادعوك اليه !

ـ مكانك اذن وانظر الى الشمس للمرة الاخيرة !

فاجابه خصمه المجهول فى لهجة ساخرة :

ـ شكرا لك على هذا النصح وما ينطوى عليه من مجاملة . وانى نظير ذلك انصحك ان تتخذ جوادا نشطا ورمحا جديدا . فستكون بك حاجة شديدة الى كليهما هذه المرة

وفعل فارس الهيكل ما طلبه منه خصمه المجهول . فاختار مطية لم يرهقها الركوب ورمحا أصلب عودا ، وغير درعه . حتى اذا تأهب البطلان للصراع كانت حماسة الجمهور قد وصلت الى الذروة . واخذت قلوبهم تدعو له بالنصر ، وان خامرهم الشك كثيرا فى جدوى ذلك الدعاء

ولما انطلقت دقات الطبول انقض كل من الخصمين على صاحبه كالبرق الخاطف والتحما فى دوى كالرعد القاصف . وتحطم الرمحان عند المقبض . بيد ان مهارتهما فى الركوب حمتهما من الوقوع عن صهوتى جواديهما وتبادلا من النظرات ما كاد يقدح بالشرر . اما الجمهور فكاد يجن جنونه تصفيقا وهتافا لذلك الالتحام الذى كان أبرع ما شاهده فى ذلك النهار

وتناول كل من البطلين سلاحا جديدا من سائسه . وبعد هنيهة من الراحة رفع الامير جان عصا القيادة فهجم الخصمان كل منهما

على صاحبه فى لدد الهجمة الاولى . فترنح الفارس المجهول وكاد يسقط عن سرجه . أما بريان فكان الهجوم عليه من العنف بحيث انقطعت حمائل السرج فسقط الفارس والفرس جميعا على الارض . بيد ان بريان تخلص من الركاب فى لمح البصر ونهض واقفا على قدميه يطوح بالسيف علامة على التحدى وقد ذهب الغضب برشـــده . فامتشق الفارس المجهول ســـيفه وترجل عن جواده . فأسرع المراقبون يحولون بينهما لان قوانين الحلقة لاتسمح بذلك النوع من القتال . فقال بريان :

ـ سنلتقى فى فرصة اخرى . وفى مكان لايتدخل فيه احد بيننا

ـ راجلا او راكبا . بالرمح او بالسيف . ستجدنى على تمـــام الاهبة لملاقاتك

ولما اتم المراقبون التفريق بين الخصمين ، رجع بريان الى خيمته بمفرده والغيظ ياكل قلبه . اما الفارس المحروم من الميراث فوقف فى وسط الميدان واعلن استعداده لمناجزة الاربعة الباقين واحـــدا واحدا . فهزم على التوالى جبين الثور ثم جار السوء ثم هوجو ثم رالف . وأوقعهم جميعا عن دوابهم فسالت الدماء من رضوضهم

وعندئذ اعلن الأمير والمحكمون والجمهور بصوت واحد آن الفارس المحروم من الميراث قد احرز شرف النصر فى هذا اليوم



الفصل الثامن

ملكة جمال الحفلة

وبعد ذلك الاعلان أصبح من المحتوم ان يتقدم الظافر بين يدى الأمير جان ليتسلم منه عنان الجواد الثمين ، جائزة انتصاره . وتقدم المراقبون ليرفعوا خوذة الفارس او على الاقل ليحلوا لامته . ولكن الفارس المحروم من الميراث اشار اليهم بيده قائلا :

ـ ان نذرا مقدسا يمنعنى من كشف وجهى لأحد

وكان مثل هذه النذور مالوفا فى ذلك العهد كثيرا . لذا لم يصر المراقبون وتركوه على سجيته . وذهبوا يبلغون الأمير رغبة الفارس الظافر . فأحس الأمير جان بقلق خفى . وكان قد نقم لتحول النصر عن الفارس بريان فى ذلك اليوم . فكيف يظل جاهلا اسم البطل الذى انتصر على أفضل رماح التاج البريطانى وجنسيته ؟

ـ ان ارادتنا تقتضى ان ينتظر الفارس المنتصر الى ان نجد شخصا يكشف لنا ما يخفيه عنا بهذا الحرص

وعندئذ قال قائد الحرس براسى :

ـ ربما كان من الفرسان الذين رافقوا شقيقكم الملك ريتشارد الى فلسطين . ان الكونت سالسبورى له هذه القامة

ـ كلا . سالسبورى اعرض منه صدرا

وهمس هامس مجهول من بين الصفوف المحيطة بالأمير :

ـ انه قد يكون الملك ريتشارد نفسه !

وسرت هذه الكلمة على الألسنة سريان النار فى الهشيم . فاصفر وجه الأمير جان حتى حاكى وجوه الموتى وقال :

ـ فلتحمنا السماء ! تذكر يابراسى وتذكر يا والدمار وعدكما بالوقوف الى جانبى مهما كانت الظروف !

فقال والدمار .

ـ لا مبرر لهذا الفزع . الا تعرف ارتفاع قامة ابن ابيك ؟ ناد هذا الفارس وسترى عن قرب انه اقصر من الملك ريتشارد بثلاث بوصات . وان كتفيه اقل عرضا من كتفى الملك بست بوصات

وجاء مراقبو الحلبة بالفارس المحروم من الميراث الى اقدام السلم المؤدى الى العرش . وكان الامير جان لم يزل تحت تأثير الخوف حين غمغم بضع كلمات فى الثناء على الفارس . فاكتفى الفارس بالانحناء ردا على تلك التحية . ثم أحضر الخدم ذلك الجواد النادر المثال ، فقفز المنتصر فوق صهوته قفزة واحدة ، ثم طاف به حول الحلقة وهو يعرض على الانظار براعته فى فنون الركوب

وفى هذه اللحظة ذكر الاسقف آيمر الامير جان بأن الوقت قد حان لاختيار ملكة الجمال فى هذا اليوم . ما دام المنتصر هو الذى سيختارها . فنادى الأمير جان الفارس المجهول وشرح له الموقف ، وأشار له من طرف خفى الى مزايا الآنسة النبيلة اليسابنةمستشاره العزيز والدمار . وكأنه اراد بذلك ان يكفر عن رغبته السابقة فى اختيار يهودية لذلك العرش مما أحرج صدور نبلاء حاشيته

ولكن الفارس المجهول لم يكن لديه أدنى استعداد فيما يظهر للاسترشاد فى اختياره برأى أحد . فبعد أن طاف على مهل بالمدرجات والمنصات وقف امام المدرج الذى يحتل جانبا منه سيدريك واثيلستان . وكان التصفيق هناك على اشد ما يكون لأن سرور سيدريك كان عظيما بهزيمة النورمانديين من جيرانه الأقربين . أما اثيلستان فجعل يوزع النبيذ الفاخر فى صحة الفارس المجهول

وتقدم الفارس المجهول فانحنى فجأة وحيا برمحه ، ثم وضع تاج الجمال تحت قدمى الاميرة روينا الحسناء . فقرعت الطبول وانفجر الهتاف من كل جانب بحياة الاميرة ملكة الجمال . بل أن العامة اخذوا يهتفون :

ـ فلتحيا الأميرة السكسونية ! فلتحيا سليلة الملك الفريد !

وعلى رغم ضيق الامير جان بهذا الهتاف لم يسعه الا الاذعان لاختيار الفارس الظافر . فتقدم نحو روينا وحياها بأدب ورجاها أن تضع على رأسها التاج . ودعاها لتشريف مأدبة البلاط بحضورها

فى مساء اليوم التالى . ولم تجب الأميرة ولكن سيدريك أجاب بدلا عنها قائلا :

ــ ان الاميرة روينا لا تتكلم الا اللغة السكسونية . ولذا سوف لا تتمكن فى المشاركة فى الحفلة . فأرجو ان تقبل اعتذارها

ــ لا بأس . فلتحضر هذه الحسناء ولتكن حلية صامتة فى مقعد الشرف . وانت أيها الفارس الظافر . هل ستحضر المادبة غدا ؟

فتكلم المنتصر لاول مرة وقال بصوت منخفض متلعثم انه يشعر بتعب شديد . ولذا يعتذر . فصاح الأمير :

ــ كلام جميل ! اهكذا لا يبالى الناس بالدعوات الملكية ! اننا لم نعهد مثل ذلك الاعراض والرفض من قبل

واخذ ينظر حوله كمن يبحث عن منفذ لغضبه المكتوم . فلمح حامل القوس الذى كان قد أثار حفيظته منذ ساعات وقال لحراسه :

ــ تحفظوا على هذا الأحمق ولا تدعوه يفلت !

فقال الرجل بهدوء تام :

ــ فلتعلم سموكم انني لست راغبا فى مبارحة اشبى قبل يومين . لأنى مشوق الى مشاهدة مدى مهارة حملة السهام فى المنطقة

ــ وانا ايضا مشوق الى مشاهدة براعتك . والويل لك ان كنت تتباهى بالكذب !

وابتعد الامير مصحوبا بحاشيته . ولم يلبث الهدوء بعد قليل أن ساد الميدان . وقبل الفارس الظافر دعوة مراقبى الحلبة فدخل احدى الخيام للراحة



الفصل التاسع

الثمن

ما ان دخل الفارس المحروم من الميراث الخيمـــة حتى حاصرها الفضوليون الذين لم يمنعهم تاخر الوقت من الاصرار على كشف النقاب عن ذلك البطـــل . بيد ان جهودهم ذهبت جميعا أدراج الرياح . لأنه رفض كل العروض التى قدمت اليه للضيافة والصداقة، فكلها كانت غير مبراة عن الاهواء

وكان سائسه الخشن المظهر ، القليل الكلام ، هو الشخص الوحيد الذى رضى ذلك الفارس ان يتقبل خدماته . وكان هذ الخادم محوطا بغموض يضارع غموض مولاه ، لأنه حرص على اخفاء حقيقة ملامحه حرصا لا يقل عن حرص الفارس على التنكر

وجلس الفارس ليتناول طعاما متقشفا ، ولكن الطعام قوطع بدخول السياس الخمسة للفرسان الخمسة الذين اقاموا الحلقة . فالتقاليد تقضى أن يضعوا خيول واسلحة سادتهم تحت تصرف المنتصر . وان يعرضوا عليه باسم سادتهم افتداء الخيول والاسلحة بفدية ماليــة

ولما كان الفارس اعلم الناس بانطباق وصف المحروم من الميراث عليه ، فقد قبل على الفور الفدية التى عرضت عليه وحددها بمــائة جنيه لكل جواد وعدة سلاح . بيد انه أعفى الفارس بريان من دفع الفدية ومن قبول سلاحه ، لأنه تحداه للمبارزة حتى الموت . وقال للسائس انه يعتبر معركته مع مولاه مستمرة لم تصل الى ختامها بعد . فلما قال له سائس بريان ان كرامة مولاه ستابى عليه قبول ما فقده فى الميدان بحكم العرف ، وهب الفارس للسائس كل شيء يخص مولاه بغير تردد

وبعد أن انتهت هذه الخطوة الرسمية اصبحت الخيمة خالصة

للفارس وسائسه ، فاطلق لسانه يتحدث عما جرى فى ذلك اليوم . فقال :

ـ فى اعتقادى ياجورث ان الفروسية الانجليزية لم ينكس لواؤها كثيرا على يدى فى هذا اليوم

فقال جورث على الفور :

ـ وانا باعتبارى راعى خنازير سكسونيا ، يبدو اننى قمت بدور السائس النورماندى فى صورة مشرفة

ـ مشرفة جدا . وانت تعرف بماذا وعدتك . فخذ دفعة على الحساب : هذه القطع الذهبية الست !

فدس جورث الدنانير فى جيبه وقال :

ـ هانذا قد اصبحت أغنى من أى عبد او راعى خنازير

ـ والآن ياجورث خذ هذا الكيس من الذهب واذهب فابحث فى اشبى عن اليهودى اسحاق ، وقل له ان ياخذ من هذا الكيس ما يراه ثمنا للحصان وعدة السلاح اللذين زودنى بهما

ـ لن افعل شيئا من ذلك بحق السماء !

ـ اجننت ياجورث ! اتعصى اوامرى ؟

ـ كلا لا اعصاها ما دمت اراها معقولة . اى ما دامت اوامر مسيحية ولكنى لا أستطيع أن ارى يهوديا يحدد لنفسه الثمن الذى يرضاه من اموال المسيحية

ـ أيها العنيد ! افعل ما امرتك به . واجتهد ان ترضى ذلك اليهودى

ـ سأجتهد ...

ولا شك أن جورث كانت لديه فكرة خاصة عن تنفيذ هذه الاوامر وسرعان ما ترك الفارس غارقا فى خواطره وسلك الطريق الى اشبى ليسأل عن المقر الذى نزل فيه اسحاق

وسنسبق نحن جورث الى تلك الدار فنجد فى احدى حجراتها اثاثا فاخرا ، وقد انفرد الاب والبنت معا فيها . ويلمح على وجه اسحاق سحابة قلق . فهو حزين على المال الذى اخذه منه الامير جان . ويخشى أن يضيع عليه الجواد الاصيل والسلاح الثمين . وابنته ربيكا تبذل جهدها فى التسرية عنه ، وتؤكد له ان الفارس الشاب لن ينسى معروفه وينكر له ، وقد ابتسم له الحظ . فصاح

اليهودى
ــ ما هذا الذى تقولين يابنيتى ؟ ومن ذا الذى رأى مسيحيا مهما صفت نفسه ، وسمت أخلاقه ، يؤدى الى يهودى دينا ؟

وما ان فرغ اسحاق من هذا الكلام حتى دخل عليهما خادم يهودى ليقول ان نصرانيا جاء يطلب الاذن بالمثول . فخطر ببال اسحـاق أن احدهم جاء يطلب قرضا ، وأمر على الفور بدخول الزائر . فدخل جورث وقال :

ــ هل انت اسحاق اليهودى من يورك ؟

ــ نعم . أنا اسحاق . ولكن من انت ؟

ــ ليس لاسمى قيمة بصدد الموضوع الذى جئت من اجله . فكل اهتمامى بمعرفة شخصيتك لاتاكد ان المبلغ الذى سادفعه سيصل الى صاحب الحق الشرعى فيه . أما أنت فلا يهمك من الذى يدفع اليك بالمال

ــ يارب ابراهيم ! اتحمل الى مالا ؟ هذا شىء غير مالوف ! وممن؟

ــ من مولاى الفارس المحروم من الميراث . اما الجواد فهو الآن فى حظيرتك . واما عدة السلاح فكم ثمنها ؟

ــ لقد صدق ظنى فى هذا الفتى الهمام مولاك ! وانت ايها الصديق الا تشرب كاسا من النبيذ الجيد ؟ كم من المال جئت تحمل الى ؟

وشرب راعى الخنازير الكأس عن آخرها وقال :

ــ بحق العذراء المقدسة ! ما اجود نبيذ هؤلاء الكفار اتسالنى كم احمل من المال ؟ ليس شيئا مذكورا ! ولكنى لست خاوى الوفاض على كل حال والآن استحلفك بذمتك ــ ولابد ان لليهود ذمة من نوع ما ! ان تحدد الثمن بأمانة

ــ ان قلت لك انى اكتفى بثمانين دينارا من الذهب ، فهل معك هذا المبلغ ؟

وكان جورث ينتظر طلبا اضخم من هذا ، فقال :

ــ معى هذا المبلغ بالضبط ولن يتبقى لمولاى شىء . ولكن اذا كانت هذه كلمتك الاخيرة ، فالامر لله !

ــ الك فى كاس أخرى ايها الصديق ؟ عد المبلغ . دينارا دينارا هنا على هذه المائدة وسترى كيف ساكون كريما

وعد جورث المبلغ وتسلم الايصال من اسحاق • وكانت يداليهودى ترتعد وهو يعد السبعين ديناراً الأولى . ثم ظهر عليه التردد ابتداء من الحادى والسبعين :

ـ اثنان وسبعون . ان مولاك شاب همام . ثلاثة وسبعون . شاب شهم . اربعة وسبعون . هذا الدينار يبدو لى ناقصـــا فى الوزن . خمسة وسبعون . ستة وسبعون . اذا اصيب مولاك بضائقة مالية فاسحاق دائما فى خدمته . سبعة وسبعون انت ايضا فتى همام . ثمانية وسبعون . تسعة وسبعون وتستحق مكافاة سنية

وكان واضحا ان اليهودى ينوى أن ينفح جورث بالدينار الذهبى الأخير . ولكنه وجد تلك القطعة البراقة اجمل كثيراً من ان يفرط فيها . ولعله قدر انها تزيد فى الوزن عن الدينار العادى بمقدار خردلة مثلا فضمها الى اخواتها فى الكيس ، ورفع عينيه الى جورث وقال ببراءة :

ـ الحساب مضبوط هكذا . وانا واثق ان مولاك سيجذل لك المكافاة كما ينبغى لفارس شهم مثله

ثم رمق ماتبقى من الكيس فى يد جورث وقال :

ـ ولكنى واثق انه لم تزل فى هذا الكيس بقية من الدنانير

فابتسم جورث بخبث وغاظه قائلا :

ـ تبقى معى اكثر مما اتعبت نفسك فى احصائه !

ثم مد يده فتناول قنينة النبيذ وصب لنفسه كأسا مترعة من غير دعوة . ثم هبط السلم باحثا فى الظـــلام عن باب الخروج . واذا بشبح ابيض يظهر وفى يده مصباح من الفضة ويدعوه للدخول معه الى حجرة مجاورة . وبعد لحظة تردد صدع جورث بالأمر . وعندئذ عرف فى الشبح الحسناء ربيكا ، التى قالت له :

ـ ان والدى مدين لمولاك بخدمة تزيد اضعافا مضاعفة على قيمة اى عدد من الخيول وعدة السلاح . فما هو المبلغ الذى دفعته لابى ؟

ـ ثمانون جنيها ذهبيا

ـ ستجد فى هذا الكيس مائة دينار ذهبى . خذه الى مولاك واعطه الثمانين دينارا واحتفظ بالباقى هدية لك . والان اذهب على عجل .

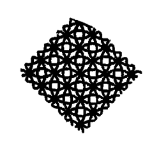
ولكن خذ حذرك وانت تخترق المدينة حتى لا تفقد مالك وحيـاتك معا

وصـفقت بيديها ثم قالت للخادم اليهودى :

ــ خذ ياروبين هذا الرجل واخرجه من الباب ثم اغلقه بالمزلاج

ولما أصبح جورث فى الطريق صاح كالمجنون :

ــ ما هذه بيهودية ! انها ملك من السماء ، معى عشرة دنانير من سيدى وعشرون من هــــذه الحسـناء زهرة الشرق ! ياله من يوم سعيد ! بمثله لو تكرر يجتمع لك ما تشترى به حريتك ، وبعدئذ استطيع ان اخدم سيدى سائسا حرا مدى الحياة !



الفصل العاشر

صدام

اسرع جورث ما استطاع الاسراع ليلحق بسيده ، ويزف اليه اخباره السارة . وكان الليل قد خيم منذ برهة . بيد ان الحلقة وما يلحق بها من مهرجانات كانت قد جذبت الى مدينة اشبى عددا كبيرا من اللاعبين والحواة والمتفرجين ، وعـــددا آخر ممن لاذمـــة لهم ولا صناعة الا السطو والنشل . لا يتورعون عن قتل انسان فى سبيل شلن واحد . فما بالك براعى خنازير سكسونى يحمل مائتى دينار ذهبا !؟

فلا عجب ان يضطرب جورث المسكين ويسير مسرعا وهو يتلفت محاذرا . وفيما هو يخترق ممرا بين سياجين كثيفين انقض عليــه شخصان لا يدرى من اين خرجا . ثم انضم اليهما اربعة من رفاقهما . ولم تفد مقاومة جورث اليائسة فسرعان ماشدوا وثاقه وهو لا يدرى هويتهم لانهم كانوا جميعا ملثمين باقنعة من المخمل الاسود . وكان واضحا انهم ينتمون الى عصابة من عصابات قطاع الطرق

وحملته العصابة الى محجر مهجور فى الجبل هو مقر الجماعة الرسمى فوجد هناك رجلا وجيها مهيبا لاشك انه الزعيم . وهذا الزعيم يشبه فى كثير من الوجوه حامل القوس الذى التقينا به من قبل فى ميدان المباراة وحدثت بينه وبين الأمير جان مشادة . وتولى هذا الزعيم استجواب جورث . فسأله عن مقدار المال الذى يحمله ، فقال :

ـــ معى ثلاثون دينارا هى خاصة مالى . وقد جمعت ذلك المبلغ لاشترى به حريتى . ولكن اذا كانت هـــذه الدنانير الثلاثون كافية لتخليصى من ايديكم فانا على استعداد لدفعها اليكم

ـ ولكن الكيس الذى تحمله تحت معطفك يا صاحبى يبدو حافلا باضعاف هذا المبلغ الذى تزعمه

ـ هذا حق . ولكنى حدثتك عمـــا يخصنى من هذا المال وهو ما املك التصرف فيه

ـ ان كلامك يدل على استقامة وأمانة . وتستطيع ان تنقذ المال كله منا ان انضممت الينا . والآن أعطنا كل ما معك

وسرعان ما جردوه من الكيس ثم استأنف الزعيم الاستجواب :

ـ ومن هو مولاك ؟

ـ الفارس المحروم من الميراث

ـ أهو ذلك الذى ظفر فى مبارزات اليوم ؟ ما أسمه ؟ ما نسبه ؟

ـ انه يصر على كتمان اسمه ونسبه . ولن تجدنى أبوح بسره

ـ ولكن ما اسمك انت ؟

ـ ان قلت لك اسمى قد تصل من ذلك الى اسم مولاى

ـ انك فتى صلب العود مخلص فيما ارى . ولكن كيف وصل هذا المال الى مولاك ؟ أهو ميراث له ؟ لا تخفى شيئا !

ـ انه كسب رمحه وذراعه . فما فى الكيس هو فدية الجيـــاد الاربعة وعدة سلاح الفرسان الاربعة

ـ وكم مجموع ذلك ؟

ـ مائتا دينار ذهبا !

ـ فقط ؟ لقد أظهر مولاك منتهى الكرم نحو المهزومين . ومن هم ؟

فذكر له جورث اسماءهم . فقال الزعيم :

ـ وفارس الهيكل ؟ كم دفع فدية لجواده وسلاحه ؟

ـ لا شىء . فمولاى لا يريد من ذلك الفارس شيئا عدا حياته ؛ فليس الذى بينهما مبارزة ودية بل عداوة قاتلة

ـ حقا ؟ وماذا كنت تصنع فى اشبى وفى حراستك هذا الكنز ؟

ـ كلفنى مولاى ان أدفع الى اليهودى اسحاق ثمن عدة السلاح التى اقرضه اياها . فدفعت الى يد اسحاق ثمانين دينارا ، فردها الى مائة !

ـ ماذا تقول ؟ كيف ؟

وصاح اللصوص جميعا فى نفس واحد يبدون دهشتهم :

ـ هذا الرجل يسخر منا ايها الزعيم !

ـ لست ساخراً من احد ! ستجدون مائة دينار على حدة فى كيس من حرير مزركش بخيوط من الفضة

ـ تذكر يا هذا انك تتكلم عن يهودى ولا يمكن ليهودى ان يرد مالا دفع اليه . لانه كرمال الصحراء تمتص الماء ولا تفيض به لاحد !

ـ هذا ما حدث ولا حيلة لى فيه !

ـ اوقدوا المشاعل لافحص بنفسى ذلك الكيس . فان ثبت عندى ان هذا الرجل يقول الحقيقة اعتبرنا ذلك معجزة من السماء !

واوقدت المشاعل وعكف الزعيم على فحص محتويات الكيس الحريرى ومن حوله اعضاء العصابة . فخفت حراستهم عن جورث فاختطف هراوة من يد اقرب اللصوص اليه وانقض بها على جمجمة الزعيم بضربة عاتية . ولكن بقية رجال العصابة كبلوا يديه وقيدوه بالحبال . وقال الزعيم :

ـ لقد اوشكت ان تحطم راسى . وستدفع ثمن ذلك العدوان . ولكننا نريد ان نسمع منك اولا انباء سيدك . فان جميع امور الفارس تجرى امام سائسه بغير حجاب . وقد وجدناك صادقا بخصوص الدنانير ونحب ان ينضم مولاك الينا لانه مثلنا محروم من الاملاك يعيش بسيفه . وقد هزم جبين الثور وجار السوء من الد اعدائنا . ويناصب بريان العداء حتى الموت وهو على راس خصومنا نطلب راسه كما يطلبه هو . فهذا الفارس المحروم من الميراث خير من تتمثل فيه قضيتنا واوضاعنا ومطامعنا

ونظر الزعيم الى رفاقه وقال :

ـ اترون ايها الشجعان ان نكون اقل كرما مع هذا الفارس من يهودى كافر ؟

فارتفعت اصوات مبهمة مضطربة تقول :

ـ هذا لا يليق . ولكن هل نترك هذا الوغد الوقح ينصرف من غير ان يدفع ثمن وقاحته وسوء فعله ؟

ـ انتم وشانكم معه . ولكن عندى حل آخر . ان نحتكم فى ذلك الى الذراع والهراوة . اتستطيع ايها الرجل ان تبارز بالهراوه

فقال جورث :

ـ استطيع . وان كنت فى شك فاسأل دماغك !

ـ ليس عندى شك فى ذلك . ولكنى اطلب اليك ان تناجز بطلنا فى ضرب الهراوة . فان قهرته خرجت سالما موفوراً . وان غلبك سأدفع فديتك لاصحابى من جيبى اكراما لسيدك الذى رفع راس السكسون عاليا

ووقف اعضاء العصابة فى حلقة كبيرة يتوسطها جورث وعملاق منهم يلقبونه بالطحان . وفى يد كل منهما هراوة ضخمة ، وجعلا يتصاولان ويتبادلان وكل منهما يقفز حول صاحبه كالديك يتحفز للانقضاض وبعد قليل تحول ذلك القفز الى صدام حقيقى لا يقل روعة عما يتغنى به الشعراء من مبارزة الفرسان فى الميادين

واغتاظ الطحان من مقاومة جورث وهو الذى الف الانتصار السريع . ففقد سيطرته على اعصابه وهجم على جورث هجوما مندفعا ، فكشف راسه . وانتهز جورث تلك الفرصة فضربه على يافوخه ضربة القته على الارض . فهلل الواقفون وحملوا المنتصر على الاعناق

وسلمه الزعيم الدنانير المائتين وحمله التحية الى سيده . ولكنه اشترط عليه الا يحاول معرفة اشخاصهم . وحسبه أن يعلم انهم عصابة من العصاة تحمل لواء المقاومة السكسونية ضد الغاصبين النورمانديين

وهكذا استأنف جورث طريقه الى خيمة سيده تحت جنح الليل



الفصل الحادي عشر

المهرجان

وفي اليوم التالي ، ما ان طلعت على الناس أولى شعاعات الشمس، حتى تدفق جمع كبير مرة أخرى على الطرق المؤدية الى الارض الفضاء التي جعلت ميدانا لحلقة المبارزات . كل يمضي الى هناك على حسب مكانته . فالسيد على جواده ، والسيدة في محفتها ، وأوساط الناس وعائلاتهم على البغال . أما الصناع وأهل الارياف فذهبوا سعيا على اقدامهم

وكان الاهتمام في هذا اليوم على أشده لانه يوم الملحمة العامة التي يشترك فيها جميع الفرسان . وهذه المعركة تحف بها مخاطر اكثر بكثير من مخاطر المبارزات الفردية . ولذا يحرص الناس على مشاهدتها لما تثيره فيهم من حماسة واهتمام

وقد اعد مراقبو الحلقة قائمتين كبيرتين تضمان اسماء أولئك الفرسان المتمرسين بألعاب الفروسية ومعاركها ، وقد أتوا الى اشبى مدفوعين بالرغبة الشديدة في كسب اكاليل جديدة من الغار ، تجدد شهرتهم في أسماع الناس . وهناك أيضا فرسان جدد يستقبلون حياة الفروسية ، ويتشوقون في هذه الحلقة ان يحرزوا من النصر ما ينشر ذكرهم في الآفاق

وعلى حسب التقاليد جعل الفرسان في صفين متقابلين ، يتزعم أحدهما الفارس المحروم من الميراث ، وتلك الزعامة حق له بمقتضى انتصاره في اليوم الاول . اما الفريق الثاني فينضوي تحت لواء الفارس بريان ، الذي كان التالي له في اليوم السابق . ودخل في هذه الطائفة الاخيرة ثلاثة من رفاقه الاربعة . أما الفارس رالف فكانت رضوضه من العنف بحيث الزمته الفراش . والى هذا الفريق

الثاني جنحت عواطف الامير جان بغير مواربة ، حتى أنه امـر قائد حرسه براسى وهو من امهر حملة الرماح أن يحل محل رالف فى فريق بريان

وكم كانت دهشة سيدريك حين رأى اثيلســـتان وقد تدجج بالسلاح من قمة الرأس الى اخمص القدم ، ينضـــوى تحت لواء فارس الهيكل بريان النورماندى · وتعـــلل اثيلستان لذلك بحجج واهية ، ولم يشأ ان يصرح بالسبب الوحيد الخفى الذى دفعه الى ذلك المسلك · وهذا السبب هو الشعور الشـــديد بالغـــيرة من الانتصارات التى احرزها الفارس المجهول فى اليوم الاول . وكيف أنه اختار الاميرة روينا ملكة للجمال معلنا اعجابه بها ؛ وهو الذى يعتبر نفسه خطيبها · فقرر بينه وبين نفسه ان يعاقب ذلك المنافس، لا بحرمانه من عونه فحسب ، بل وبالوقوف منه موقف الخصومة المسلحة

وبمجرد ان علم الامير جان نبأ وصول ملكة الجمال الى الحلقة ، ذهب بنفسه لملاقاتها ، وبالادب الجم الذى يعرف كيف يبديه فى الوقت المناسب خلع قلنسوته وانحنى أمامها قائلا :

ـ اننا نود من اعماق قلوبنا ان نكون من أوائل الرعايا المخلصين لجلالتك !

ثم التفت الامير الى السيدات اللواتى يحدقن به وهن زينة البلاط حسبا ومحتدا وجمالا ، وقال لهن :

ـ اصحبن ملكتكن

وما أن استقرت الاميرة روينا فى مجلسها ، حتى ارتفعت أصوات الطبول تحيى مقدمها · وأخذ المنادون يعلنون فى الابواق شروط المباراة · ورغبة فى التقليل من مخاطر هذه الملحمة العامة ينبغى استخدام سيوف ورماح غير حادة · ومتى ألقى الامير جان الى الحلقة بعصا القيادة يجب أن يتوقف كل عمل عدائى

وبعد ان انتهى المنادون من تلاوة الشروط والوصايا طلبوا من المتحاربين ان يؤدوا التحية · فاصطفوا صفين متساويين ، كل صف منهما خمسون رجلا . كلهم فى الدروع السابغة فوق جياد مطهمة وقد شرعوا رماحهم ، فى انتظار اشارة الابتداء . ثم دوى صـوت

أحد مراقبى الحلقة ايذانا بالالتحام · ودقت الطبول وهجم كل صف على الصف المقابل فى ارتطام عنيف ثارت من حوله سحب الغبار فحالت دون الرؤية الواضحة · ثم هجم الصف التالى من كل فريق واشترك فى المعركة · حتى اذا هدأ الغبار تبين الناس ان نصف الفرسان على الاقل وقعوا عن صهوات جيادهم ، وان عددا كبيرا منهم اصيبوا بجراح بالغة . ومن لم يمسسهم سوء يتطاحنون ويتصارعون فى الميدان وهم يتصايحون بنداءات الحرب

وكانت قعقعة السلاح وصرخات المتلاحمين ودقات الطبول وأنات الجرحى تختلط فى ضجة واحدة مروعة . وكان افظع المناظر منظر اولئك الجرحى تدوسهم سنابك الخيل بغير رحمة اثناء الكر والفر . ومنظر الدروع اللامعة وهى تتحطم تحت ضربات السيوف وطعنات الفئوس . وهو منظر جعل الجماهير تهلل له متحمسة مبتهجة ، ولو حدث فى عصر اكثر تهذيبا لاثار الفزع والهول . ولم يكن من النادر أن نرى سيدات رقيقات تكاد تدمى اكفهن من التصفيق اعجابا بالاعضاء المهشمة ، والجماجم المحطمة ، مثل جداتهن عقيلات الرومان، اللواتى كانت مصارعة الوحوش ومجالدات الفرسان فى ملاعب روما القديمة تستهويهن وتثيرهن

وفى وسط هذا الالتحام كانت الاعين تتطلع جاهدة لترى زعيمى الفريقين · فكل منهما أثبت مهارة عظيمة فى فنون القتال · وما من أحد من أعضاء الفريقين يضارعهما فى ذلك · وفى المناسبات النادرة التى كانا يلتقيان فيها وسط اطوار المعركة ، كان قتالهما ينتزع صيحات الاعجاب لما يبديان من براعة ومهارة ، فأثبت كل منما انه كفء للآخر بمعنى الكلمة

وحانت لحظة كان فيها فريق الفارس المحروم من الميراث أدنى الى الهزيمة . لان جبين الثور العملاق بذراعه الجبار ، وقوة اثيلستان الطاغية ، استطاعا أن يقضيا على معظم انصاره . وبعد ذلك اتفق الاثنان على مؤازرة بريان صد خصمه العنيد للاجهاز عليه · فهجم النورماندى على يمينه والسكسونى على شماله وهو ملتحم مع بريان وجها لوجه

وما كان الفارس المحروم من الميراث ليتنبه الى المخاطر وهو مشتبك

مع خصمه أو يتوقعه لولا ان صيحات الجمهور من العامة نبهته الى ما يحدق به ٠وكانت عواطف العامة متجهة اليه صراحة ٠ وعندئذ اظهر فنونا جديدة من خفة الحركة اعانه عليها جواده العريق ٠ فجعل يتحول في سرعة البرق الخاطف فيطعن يمينا ثم يطعن يسارا ونجح فترة من الوقت في مجابهة الخطر الثلاثى حتى ان النبلاء المحيطين بالامير جان توسلوا اليه ان يرمى بعصاه الى الحلقـــة ايذانا بوقف القتال وانقاذا للفارس المجهول من هذا القتال غير المتكافىء الذى تغلب فيه الكثرة الغاشمة الكفاية والفن فصـــــاح الامير جان فى ضيق :

ـ لن افعل وايم الله شيئا من ذلك ! فلن يقـــال ان ذلك الفتى الناشىء الذى يخفى عنا اسمه لن يعرف الا الانتصار بعد الانتصار

ولم يتم عبارته حتى حدث شىء غير منتظر غير مجرى الامور تغييرا حمـــا

ففى فريق الفارس المجهول فارس يرتدى درعا سابغة سوداء ، ويمتطى صهوة جواد اسود اللون ٠ عريض الصدر عالى القامة يبدى من القوة مثل التى يبديها زعيمه . وليس فوق درعه السوداء اى شعار ولكنه كان ينظر الى الملحمة الدائرة نظر المتفرج الذى لايعنيه من الامر شىء ٠ بل كان يكتفى بدفع الهجمات القليلة التى قد توجه اليه بين الحين والحين وكأنه يلهو ، ولم يحاول مرة واحدة أن يهاجم احداً . فجعل جمهور العامة يتصارع عليه ويلقبه « بالاسود الخائب »

هذا الفارس عندما رأى زعيمه في مأزق حرج ، اهتز كمن يصحو من سباته ، وحث جواده الاسود على الهجوم ثم اندفع الى مكـــــان الالتحام وهو يصيح هاتفا بشعار زعيمه المحروم من الميراث ٠ وكان جبين الثور فى هذه اللحظة يوشك ان ينقض على الفارس المجهول بالسيف . ولكن قبل أن يهوى السيف فوق هامة الفارس المجهول ، كان الفارس الاسود قد أهوى بسيفه فوق خوذة جبين الثــور ، فانزلق السيف على الفولاذ المصقول وهوى بكل قوته فوق عاتق الجواد فسقط هو وراكبه على الارض ٠

ثم دار الفارس الاسود ليواجه اثيلستان . وكان سيف الفارس الاسود قد تحطم . فانتزع من يد اثيلستان بقوة جبارة الفأس التى يطوح

بها فى يده ثم اهوى بها عليه فالقاه فاقد الوعى على وجهه . وكاد يجن جنون الناس من التصفيق والحماسة

وكأنما كان كل هم الفارس الاسود ان يخلص زعيمه من هذين الخصمين ، فعاد الى مكانه بعيدا ولزم الهدوء ، تاركا الفارس المجهول يواجه بريان بمفرده

وبعد هجمة واحدة جرح حصان بريان وتهاوى على الارض ، فهوى معه فارس الهيكل . وعندئذ ، وعندئذ فقط ، اظهر الامير جان رغبته فى وقف القتال ليجنب فارسه المفضل عار النصر ، فالقى بعصا القيادة الى الحلقة وتوقف القتال

وهكذا انتهت المبارزات فى حلقة اشبى التى تعتبر من احمى وادمى حلقات ذلك القرن ، فقد مات فيها ستة فرسان ، وجرح فيها أكثر من ثلاثين جراحا بالغة تخلفت عنها عاهات مدى حياتهم

وبانتهاء الحلقة حان الوقت كى يختار الامير جان بطل ذلك النهار . فوقع الاختيار على الفارس الاسود . وان كان أكثر الناس ينادون باختيار الفارس المحروم من الميراث ، لانه هزم ستة من الفرسان المبرزين بين قتيل وجريح ، وارغم خصمه العنيد على الاعتراف بالهزيمة . بيد أن الامير جان اعترض على ذلك بانه لولا تدخل الفارس الاسود فى الوقت المناسب لكان فارسهم المجهول خر صريعا لا محالة

وذهب المراقبون يبحثون عن الفارس بطل ذلك اليوم فوجدوه قد اختفى من غير أن يخلف وراءه اثرا . وقال بعضهم انهم رأوه يتجه الهوينى الى بعض مسالك الغابة . فاضطر الامير جان ازاء ذلك الى اعلان الفارس المحروم من الميراث بطلا لليوم الثانى أيضا . وجاءوا به الى اعتاب العرش الملكى . فقال له جان فى غير مجاملة :

ـ شاء حظك أيها الفارس ان تتلقى من يدى ملكة الجمال الاكليل الذى اظفرتك به للمرة الثانية كفاءتك للقتال

فانحنى الفارس من غير ان يتكلم . ولاحظ بعض الواقفين انه ترنح قليلا . فلما اقتادوه الى عرش روينا ركع . واشار بيده انه يريد الاحتفاظ بخوذته . ولكن مراقبى الحلقة احتجوا بالتقاليد المقدسة ونزعوا خوذته عنوة ، فاذا شاب فى الخامسة والعشرين يعلو جبينه العريض شعر ذهبى متموج . وقد شحبت وجنتاه كمن يوشك

ان يتهاوى

وما ان رات الاميرة روينا وجهه حتى ندت عنها صيحة . ثم تمالكت نفسها وقالت له بلسان ثابت تلك العبارة التقليديه :

ـ ايها السيد الفارس . اقدم اليك هذا التاج مكافاة على بسالتك بما احرزته من نصر فى هذا اليوم !

ثم اردفت بصوت اقوى عبارة من عندها :

ـ وما من اكليل من اكاليل النصر التى تقدم للفرسان احمل جبينا اجدر به من هذا الجبين

فحنى الفارس راسه وقبل يد الملكة الشابة . وعندئذ وقع مغشيا عليه تحت قدميها . فسرت همهمة بين الناس . واراد سيدريك ان يتدخل ولكن المراقبين خلعوا الدرع ليجدوه جريحا جرحا غائرا ..



الفصل الثاني عشر

سيد الرماة !

انتشر اسم ايفانهو بين جمهور الحاضرين بسرعة البرق الخاطف . وما أن علم الامير جان بذلك النبأ حتى تجهم وجهه . لانه كان ينفر نفورا قويا من كل انسان يذكره عن قرب أو عن بعد باخيه الملك . ولم يكن بالذى يجهل ان ابن سيدريك من اشد اعوان ريتشارد اخلاصا . والصقهم بشخصه . فعودة ولفريد لايمكن أن تكون بشير خير . وفضلا عن هذا كان الامير جان قد سمح لنفسه بالتصرف فى بارونية ايفانهو فوهبها لاحد المقربين اليه ، الا وهو البارون النورماندى ريجينالد الملقب بجبين الثور . فلا عجب أن تكون عودة ولفريد ايفانهو مصدر قلق وهم عظيمين لنفسه الخبيثة . وان كان والدمار أكد له أوثق التأكيد ان ايفانهو لايفكر فى الوقت الحاضر فى استرداد الاملاك التى تلقاها من يد الملك ريتشارد نفسه . لان جرحه يحول بينه وبين ذلك

وما أن سمع الامير جان هذه الملاحظة حتى اقترح باسما ابتسامة ذات مغزى بعيد أن يقوم طبيبه الخاص بعلاج ولفريد من جرحه . ولكن ذلك الامر جاء متأخرا . لان أيادى اخرى كانت قد بسطت حمايتها على ذلك الفارس الجريح ونقلته بعيدا

وعندما هم البلاط بمبارحة الحلقة سلمت الى الامير جان ورقة مختومة . فضها فلم يجد فيها ألا هذه الكلمات :

« خذ حذرك ! فقد خرج المارد من القمقم ! »

واصفر وجه الامير حتى حاكى شحوب الموتى . وقد ادرك على الفور ماتشير اليه هذه الرسالة . فاختلى جانبا بصديقيه براسى ووالدمار ، واطلعهما على الرسالة المجهولة ، فقال والدمار على

الفور :

ـ ذلك معناه ان اخاك ريتشارد قد اطلق سراحه

ـ ان هذا هو خط فيليب ملك فرنسا وخاتمه

ـ اذن يجب ان نجمع اعواننا فى مدينة يورك . وينبغى على سموك ان تنتهى بسرعة من هذه المهرجانات الشعبية

ولم يعجب هذا الراى قائد الحرس براسى فقال :

ـ لا ينبغى ان نثير استياء العامة

فهز والدمار كتفيه وقال :

ـ ليكن هذا ! فلتتم المباراة بين رماة السهام ويعطى الفائز الجائزة المرصودة بأسرع وقت

فقال الامير :

ـ هذا راى سديد . وانى أذكر بهذه المناسبة أن هناك حسابا يجب تسويته مع ذلك الجلف الذى اظهر عجرفة ، وقبل التحدى لاظهار براعته فى رمى السهام . اما عن مادبة العشاء فستقام كما قررنا . فلنطرح الهموم الى غد !

وصدرت الاوامر الى حمة الطبول فتوالت دقاتها المدوية تدعو جمهور المتفرجين الى استرداد اماكنهم بعد أن كانوا قدشرعوافىالرحيل وسرت بين الناس اشاعة مؤداها ان اعتبارات تتعلق بشئون الدولة العليا حتمت على الامير جان تغيير برنامج المهرجان الذى كانت اقامته مزمعة فى اليوم التالى ، بحيث تقام فى التو واللحظة المباراة النهائية فى الرماية بين امهر رماة السهام فى الاقليم . وكانت الجائزة المرصودة لامهر الرماة عبارة عن بوق للصيد مطعم بالفضة ، وحمائل من الحرير

وتجمع نحو ثلاثين من المتنافسين . وكلهم من الرماة المتمرسين ذوى الشهرة المستفيضة . ولكن معظمهم انسحبوا من المباراة عندما راوا خصمهم . فلم يتبق منهم الا ثمانية هم خلاصة الخلاصة بين الرماة بالسهام . وكان كثيرون منهم من الحرس الملكى

وبينما كان الامير جان يستعرضهم راضيا مسرورا ، التقت عيناه بعينى ذلك الرجل الجلف ذى القلنسوة الخضراء . فتصنع الهدوء وعدم الاكتراث وقال له :

ـ اهذا انت ايها الالعبان ! كنت اشك كثيرا فى اجترائك على المجازفة

بسمعتك واشتهارك بالمهارة أمام هؤلاء الشجعان

ـ انى اخشى كثيرا أن ترى سموكم جائزة ثالثة تمنح لشخص لا يروق لكم !

فسأله الامير فى امتعاض :

ـ ما اسمك يارجل ؟

ـ لوكسلى

ـ اسمع يالوكسلى . ستدخل المباراة مع هؤلاء . فان ظفرت بالجائزة فذلك من حظك . اما أن خسرتها فسنجردك من خوذتك الخضراء وتطرد من الحلقة ضربا بالسياط لوقاحتك وخروجك عن قدرك

ـ اذن أنت تجبرنى على التبارى مع أفضل رماةالسهامفى مقاطعتى لايسستر وستافورد ، وأنا معرض للاذلال والتشهير ان هزمت !؟ ليكن لك ماتريد !

ـ اتفقنا . ولا تغفلوا عن رقابته أيها الحراس حتى لايهرب ! واما أنتم أيها الشجعان فأحكموا التصويب . وليفز أحدكم بالجائزة . وستجدون جديا مشويا ودنا من النبيذ فى انتظاركم بعد المباراة

ووضع الحراس الهدف فى نهاية الجهة الجنوبية للحلقة ، وتزود كل واحد من الرماة المتبارين بثلاثة سهام . وتقدموا الواحد فى اثر الآخر واطلقوا سهامهم فى هدوء . فلم تستقر من سهام هؤلاء الثمانية الرماة الا عشرة سهام من مجموع السهام البالغ أربعة وعشرين ، انغرست العشرة فى الهدف المثبت على مسافة بعيدة . ولم ينغرس من السهام العشرة فى الدائرة الوسطى من الهدف الا سهمان ، رماهما حارس صيد فى املاك جار السوء ، اسمه هوبير . وعندئذ نظر الامير جان الى لوكسلى وهو يبتسم ابتسامة صفراء وقال :

ـ والآن يالوكسلى مارايك ؟ أتنوى أن تنافس هوبير ام تسلم أسلحتك الى المراقبين وترضى من الغنيمة بالاياب ؟

ـ بل افضل ان اجرب حظى . ولكن على شرط ...

ـ وما هو شرطك ؟

ـ بعد ان اطلق سهمين فى موضع سهمى هوبير ، يتحتم عليه أن يطلق سهما على الهدف الذى اعينه أنا ، ليكون ذلك فصل الخطاب

بينى وبينه ويعرف الناس اينا ادق اصابة من صاحبه

فقال الامير :

ـ هذا عدل لاشك فيه . فتشجع ياهوبير واهزم هذا المختال وسأملأ البوق الذى ستظفر به دنانير ذهبية !

ـ ساجتهد يامولاى ان اكون عند حسن ظنكم !

وكان من حق هوبير أن يبدأ فى الرماية . فأطلق سهمين بكل دقة على الدائرة الوسطى للهدف قرب المركز . فقال له لوكسلى وهو يشد قوسه :

ـ لو انك ادخلت فى حسابك شدة الريح واتجاهها لكانت اصابتك احكم وادق

ومن غير ان يظهر عناية كبيرة بالتصويب اطلق لوكسلى سهمه فاستقر على الدائرة الوسطى للهدف ، أقرب من سهم هوبير الى المركز باصبعين . فزمجر الامير :

ـ بحق السماء ! ان تركت هذا الالعبان بهزمك سأشنقك .!

فتناول هوبير السهم واطلقه بعد أن استفاد من نصيحة خصمه فاصاب السهم مركز الدائرة الوسطى بالضبط . واخذت الجماهير تصفق وتهتف لهوبير . وقال الامير جان ساخرا

ـ والآن ماذا ستصنع يالوكسلى كى تتفوق على هذه الاصابة ؟

ـ سافلق بسهمى سهمه !

وفى هذه المرة صوب سهمه بعناية . فاصاب سهم منافسه وتطاير السهم شظايا متناثرة فى الجو . فكاد الناس لايصدقون أعينهم . وجن جنونهم من الهتاف والتصفيق ، وخطر لهم ان ذلك الرجل المجهول شيطان وليس انسيا

وبعد أن هدات عاصفة التصفيق قال لوكسلى للامير :

ـ والآن التمس من سموكم أن اتخير هدفى على طريقة اهل الشمال . فلتأمر الحراس بمرافقتى كى أقتطع غصنا من أول شجرة سرو اصادفها فى طريقى

ولكن الامير تركه يذهب وحده وسرعان ماعاد بغصن طوله ست أقدام ، مستقيم للغاية . لايكاد يزيد سمكه على ابهام اليد . واخذ ينزع عنه قشرته بعناية فائقة . ثم وضع الغصن على مسافة مائة

خطوة وقال :

ـ من استطاع ان يصيب هذا الهدف فهو رام بمعنى الكلمة جدير بحمل القوس وكنانة السـهام امام ملك ، ولو كان ذلك الملك هو ريتشارد قلب الاسد نفسه . فما رايك الآن ياهوبير ؟

ـ لقد كان جدى الاعلى بطلا من ابطال موقعة هاستنجس . وكان قوسه اقوى قوس . ولكن هذا اهدف فوق استطاعتى . فكانك تريدنى على اصابة حد سكين او عود من القش ! انى انسحب !

فصاح الامير جان غاضبا :

ـ انت دجال يالوكسلى . لقد افزعت خصمك بهدف تعجز انت عن اصابته . هيا صوب سهمك . وان أصبت هدفك سأنادى بك سيد الرماة الذى لا يشق له غبار !

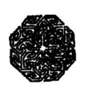
ـ سأفعل كل ماقى وسعى !

وبأناة تامة شد وتر القوس . وقد حبس جميع المتفرجين أنفاسهم . وانطلق السهم يشق الهواء ففلق الغصن الرفيع فلقتين . وانفجرت عاصفة من التصفيق ، اشترك فيها الامير جان بحماسة وقد نسى سخطه على البطل وصاح بصوت كالرعد :

ـ اشهد انه مامن ذراع اقوى من ذراعك شدت قوسا ، وما من عين اثقب نظرة من عينك صوبت سهما ! ادخل خدمتنا راميا فى حرسنا وسأمنحك خمسين دينارا ذهبا !

ـ اعفنى ايها الامير ! فقد نذرت الا ادخل فى خدمة مخلوق الا الملك ريتشارد قلب الاسد شقيقك !

وسرعان ماراغ وسط الجمهور المحتشد وغاب عن الانظار . أما الامير جان فتملكه الغيظ لهذا الرفض ، وركب حواده متجهم الوجه ليعود الى اشبى



الفصل الثالث عشر

فى المأدبة

وكان المكان المقرر لاقامة المادبة هو قلعة مدينة اشبى . وكان الامير جان محبا للترف والبذخ فى كل تصرفاته ، لذا صدرت الاوامر كى تبدو هذه المادبة فى أروع صورة ممكنة ، وان تتخذ جميع التدابير لتقديم كل ما يمكن تقديمه من المآكل الفخمة بكميات وافرة ، لا اعتمادا على شهية البارونات النورمانديين ، بل بوجه الخصوص على شهية السكسونيين الذين كانت تضرب الامثال بقدرتهم على الالتهام

ومن بين نبلاء السكسون البارزين سيدريك واثيلستان . وقد استقبلهما الامير استقبالا وديا خاصا ، وابدى اسفه الشديد لان الاميرة روينا لم تجد من المناسب الحضور معهما الى مادبته . والواقع ان الامير جان قد دبر فى ذهنه تقديم قائد حرسه موريس دى براسى الى تلك الوارثة السكسونية الغنية على املعقد الزواج بينهما . وكان صديقه براسى أجمل فى نظره واشد جاذبية واغراء من ذلك العتل اثيلستان . ولهذا المشروع مزية سياسية كبرى فى نظرد ، لانه يقضى على كثير من أسباب العداء القائمة بين السلالة السكسونية والسلالة النورماندية . ولكن غياب الاميرة المتعمد عن مادبته فوت عليه غرضه فى الوقت الحاضر على الاقل

وحرص الامير على اخفاء قلقه بصدد عودة اخيه من الاسر ، وتظاهر بانصرافه انصرافا كليا الى اللهو والقصف والاقبال التام على المآكل الشهية ، والضحك من الاعماق للنوادر والنكات التى يطلقها رجال حاشيته وكان يعب باستمرار من الانبذة الفاخرة التى يقدمها السقاة

وكان الموضوع المفضل لاشراف النورمانديين هو السخرية من

جهل السكسون بآداب المائدة الفرنسية ، وباسلوب الحديث فى البلاط ، فكان سيدريك يتميز غيظا ويغلى دمه فى عروقه غلياناحقيقيا امام تلك السخرية . فأخذت عيناه تدوران فى محجريهما وتقذفان بالشرر كأنه الثور الهائج الذى يتحفز للنطاح ، وينتظر الفرصة المواتية للهجوم على من يسومونه سوء العذاب . .

واخيرا طفح به الكيل ، ولم يطق صبرا عندما اشار احدهم الى فقدان السكسون لحريتهم ، فصاح :

ــ أيا كانت العيوب التى يرمى بها شعبنا ، فاننا لم ننحط فى يوم من الايام الى معاملة ضيوفنا تلك المعاملة التى تسومونها من يجلسون الى مائدتكم . وكائنة ما كانت قسوة الايام على أجدادنا فى موقعة هاستنجس ، فالاولى بهذين على الاقل ان يصمتا وقد اوقعهما عن جواديهما رمح فارس سكسونى !

وكان ينظر وهو يتكلم الى جبين الثور وبريان . فصاح الامير جان بهما :

ــ هذا رد مفحم موجع لعمرى ! ما رايكما ايها السيدان ؟

فقال والدمار .

ــ بعض هذا الهزل ايها الفرسان . ومن اللائق ياصاحب الجلالة ان تؤكد للنبيل سيدريك انه لم يخطر ببال احد منا ان يهينه او يهين احدا من اشراف أرومته بذلك المزاح الذى تجاوز الحدود !

فصاح الامير جان الذى يناديه خاصته بصاحب الجلالة :

ــ اهانة ؟ من الذى فكر فى هذا ؟ ان هذه الفكرة ابعد ما تكون عن ذهنى بدليل انى ساشرب بقية هذه الليلة باستمرار نخب النبيل سيدريك ونخب ابنه الباسل ولفريد ايفانهو !

وشرب الامير النخب ، وشرب جميع من يحيطون بالمائدة بين التصفيق والتهليل .

ثم قال الامير بعد ذلك :

ــ والآن اطلب الى سيدريك أن يرد على مجاملتنا بأن يعين الشخصية النورماندية التى يراها جديرة فى نظره باجماع الشعبين على احترامها والولاء لها

وانتهز والدمار هذه الفرصة فتسلل خلف مقعد سيدريك ونصحه

بالا يفلت هذه المناسبة للصلح مع الامير ، فيشرب نخب الامير جان نفسه باعتباره الشخصية المطلوبة . فنهض سيدريك وملأ كأسه الى حافتها ثم قال :

ـ مادمتم جلالتكم قد دعوتموني صراحة الى اختيار تلك الشخصية فانى ساختار ذلك الرجل الذى يفوق جميع الرجال بمقامه وكفاءته فى ميادين القتال . وما دام القدر قد شاء أن يثنى المهزوم علانية على قاهره ؛ فانى ادعوكم أيها الفرسان النورمانديون وانتم أيها النبلاء السكسون الى تجرع كئوسكم نخب الملك ريتشارد قلب الاسد !

وكان جان يظن حتى قال سيدريك كلمته الاخيرة أنه سيذكر اسمه ، فخاب أمله بصورة يعجز القلم عن وصفها . أما الحاضرون فتبادلوا النظرات فى فزع ووجل . وانصافا للحق يجب أن نذكر أن سرور سيدريك بهذا الانتقام اليسير كان سرورا عظيما . ورغم هذه الحقائق الواضحة تكلف الامير وجميع حاشيته السرور والتهليل وشربوا كئوسهم على مضض ، اللهم الا بريان فارس المعبد وجبين الثور فانهما لم يمسا كأسيهما

وكان هذا المازق هو المشهد الختامى فى تلك المادبة . فلم يلبث المدعوون أن تفرقوا منصرفين اللهم الا المقربون جدا من الامير وكبار ضباطه

ولم يكن بين هؤلاء من هو اشد اخلاصا ولهفة من والدمار . فلما راى الامير يتشكى فى حرقة من تلك الزراية التى اصابه بها علنا هذا السكسونى ، جعل يشجعه على مواجهة الواقع ويوصيه بتكلف المرح ووعده بالعمل على تألف القلوب حوله واقناع المترددين بوجـــوب الانضمام الى لوائه . ولن يستطيع رجوع ريتشارد الى انجلترا أن يغير شيئا فى الموقف . فمن الواجب أن يصمدوا الى النهاية

ولما سمع الفرسان النورمانديون الآخرون هذا الكلام تعهدوا بالحضور الى مدينة يورك للتشاور مع الامير جان حول الموقف العام لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهته

وبعد ذلك خرج والدمار من القلعة الملكية ، فالتقى عنـد البــاب بقائد الحرس براسى فى صورة غريبة ، حتى أنه وجد عناء فى بداية الامر فى التعرف عليه . فقد كان يرتدى درعا خضراء وفى يده ىدق

من ابواق الصيد وسيف قصير ، وقد علق بحزامه كنانة سهام .
فسأله وهو يضحك :

ـ ما معنى هذا التنكر الغريب ؟ اتجد الظرف ملائما لهذه المهازل لا لماذا لم تبذل جهدك معى لرفع الروح المعنوية بين هؤلاء الرعاديد الذين يرتجفون لمجرد ذكر أسم الملك ريتشارد قلب الاسد ؟

ـ انك يا عزيزى والدمار كنت مشغولا بما يهمك . اما انا فانشغالى كان بما يهمنى

ـ وما ذاك ؟

ـ انى أعتقد أن هيبتى ومواهبى الطبيعية كافية لكسب قلب الاميرة روينا التى تفضل اميرنا فاختارها عروسا لى

ـ وما علاقة ذلك بهذا التنكر الغريب ؟

ـ اليك جلية الامر . ان روينا وسيدريك واثيلستان وحاشيتهم ستمر الليلة بمنطقة ويترولد قرب الدير . وسأنتهز هذه الفرصة فانقض مع نفر من جنودى المتنكرين متسللين على القافلة ونعتقل اشخاصها . على زعم اننا عصابة من الخارجين على القانون الذين تعودوا اعمال الشغب والعنف

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد الفراغ من هذه العملية سأختفى واخلع ثياب التنكر واظهر امام روينا فاخلصها من يد قطاع الطرق واذهب بها الى قلعة جبين الثور . ولا اظنها بعد ذلك ستبدى نفورا منى وقد انقذتها بشجاعتى . وهكذا اظفر بعروس جميلة يسحرنى حسنها على طريقة الابطال الاقدمين

وفكر والدمار قليلا فى هذه الخطة . واوشك أن يصارح براسى بانها خطة خرقاء لولا انه سمع صوت مولاه جان يناديه . فأسرع يخلع قبعته ويخف لتلقى أوامر من يطمع فى تولى عرش انجلترا ؛ ويعده ان يجعل منه مستشارا للتاج

الفصل الرابع عشر

الناسك

يذكر القراء ان المعركة الختامية فى الحلقة كان الفضل فيها لذلك الفارس المجهول ذى الدرع السوداء والجواد الاسود ، الذى ابدى فى بداية الالتحام تباعدا عن كل نشاط ، حتى سماه الجمهور بالاسود الخائب . ورأينا كيف نشط لتخليص ايفانهو من الهلاك ، ثم انفلت متجها نحو الغابة لايلوى على شىء ، ولا يستجيب لنداء من دعوه باسم الامير لتلقى جائزة اليوم

وقد قضى ذلك الفارس الاسود ليلته تلك فى حانة . وهناك عرف النتيجة الختامية للحلقة . واستأنف فى ساعة مبكرة من الصباح تقدمه فى الغابة . وظل يسير على غير هدى طول النهار . فلما حل الليل تحتم عليه أن يجد لنفسه ولدابته مأوى

والحقيقة انه كان لا يدرى بالضبط أين هو . فقرر اخيرا ان يترك جواده على بصيرته الغريزية . وما ان ترك له العنان حتى اندفع فى اتجاه مضاد تماما للاتجاه الذى كان يحمله عليه فارسه ، سائرا فى طريق ضيق جدا بين الاشجار . ولكن هذا الطريق لم يلبث ان اتسع . وبعد قليل سمع صليل ناقوس صغير ، مما يدل على الاقتراب من كنيسة أو من صومعة ناسك

وبعد قليل ظهرت امام الفارس الاسود رحبة ، يجرى فيها نبع ماء صاف بالقرب من كنيسة صغيرة بدائية البناء . وعند الصخرة التى فى نهاية الرحبة كوخ صغير مبنى من جذوع الاشجار بطريقة تدل على قلة الخبرة بالبناء والنجارة . فلا شك ان هذا هو المحل المختار لناسك متعبد . وكان من المألوف فى ذلك العهد ان نجد نساكا متوحدين على هذه الصورة بكثرة فى الجبال والغابات والاحراش

وتذكر الفارس الاسود ان على هؤلاء النساك واجبات مقدسه ومن اهمها واجب الضيافة . فشكر فى سريرته القديس جوليان الذى اتاح له ملجأ امينا يقضى فيه ليلته . ثم دق بزق رمحه باب الصومعة وانقضت فترة من الزمن قبل ان يتلقى جوابا . ولما جاءه الرد اخيرا، لم يكن سوى زمجرة حلق قوى :

ــ ايها الطارق كائنا من كنت سر فى طريقك ولا تعكر صفو خادم الله والقديس دونستان وهو يصلى صلاة المساء !

ــ ايها الاب الموقر ! انا فارس ضل طريقه التمس ضيافتك !

ــ قلت لك سر فى طريقك وليساعدك الرب !

ــ وكيف استطيع السير فى هذه الظلمات ؟ كيف اتبين طريقى ؟ افتح لى بابك او على الاقل ارشدنى الى الطريق

ــ ارجوك ايها الاخ فى الرب الا تزعجنى اكثر مما فعلت ! لقد قطعت على الصلوات التى نذرت القيام بها قبل طلوع القمر

فصاح الفارس بغيظ :

ــ ارشدنى الى الطريق ! الطريق ! لا اريد اكثر من ذلك !

ــ ليس الطريق شاقا . سر الى الامام وستجد مستنقعا ، ثم نهرا ، واظنه جافا لانقطاع المطر منذ مدة . فاخترقه ولكن خذ حذرك عند الضفة الاخرى من الصخور والمزالق والهوات . ثم سر امامك . .

ــ طريق مقطوع . وهوات . ومستنقع . وسر امامك ! يا سيدى الناسك انك تهزل ولا شك . وليس من حقك ان ترفض ايواء مسافر ضل الطريق . فافتح لي الباب والا اقتحمته !

ــ خفف من غلوائك ايها الصديق المسافر ، حتى لاتحمر اذناى ، والا لجأت، الى الاسلحة الجسدية . وعندئذ فلا تلومن الا نفسك !

وانفجرت بعد ذلك عاصفة من عواء غاضب . وسمع الفارس ضجة وراء الباب فادرك ان الناسك يقيم المتاريس ويتحصن للدفاع . فدفع الفارس الباب بقدمه فى عنف فانخلع . وعندئذ صاح الراهب

ــ على رسلك ايها المسافر الصالح ولا تبدد قوتك !

ثم ظهر له رجل متين البنيان عليه برنس مما يلبسه الرهبان . وفى يده هراوة ضخمة من خشب التفاح البرى . وفى يده الاخـــرى سلسلة بها كلبان من كلاب الصيد ذات الحجم الضخم ، وقد وقف

شعرهما وكشرا عن انيابهما

ولكن عندما لمح الناسك المهمازين الذهبيين امر الكلبين بالصمت واعتذر عن تلكئه في فتح الباب بخوفه من اللصوص وقطاع الطرق الذين يعيثون في المنطقة فسادا . ثم دعا الفارس الى صومعته التي تضيئها شعلة كبيرة

ولما دخل الفارس عجب في نفسه ما الذي يخشاه هذا الناسك من اللصوص وهو لايملك شيئا يطمعون فيه ؟ وادهشه أيضا أن منظر هذا الناسك الضخم الاحمر الوجه لا يشبه في شيء مناظر الرهبان المتعبدين وادهشه كذلك هذان الكلبان الضخمان اللذان لا يقتنيهما الا صياد وعول من الطراز الاول

وادرك الناسك بعض دواعي الدهشة لدى ضيفه فقال مشيرا الى الكلبين :

ـ ان حارس الصيد الصالح سمح بالاحتفاظ بهما ليحرســـا عزلتي

ثم نشط الناسك فاشعل النار في الموقد بقطع من أخشاب البلوط وقدم الى ضيفه مقعدا هو قطعة من جذع شجرة بلوط امام مائدة صغيرة ، وجلس هو فوق مقعد آخر . واخذ كل منهما ينظر الى صاحبه ويعجب من قوته الخارقه . وكان الفارس هو البادىء بقطع حبل الصمت قال في اجلال مصطنع :

ـ سيدي الناسك الموقر . ارجو أن ترشدني الى ثلاثة أشياء : اولها اين استطيع ان اضع حصاني ؟ وثانيها ماذا ستقدم لعشائي . وثالثها كيف ساقضي ليلتي ؟

فقال الناسك بوقار مصطنع :

ـ ساكلمك بالاشارة . لان نذري يحتم على الا اتكلم ما دامت الاشارة كافية لفهم مرادي بصورة معقولة

وبعد ذلك أشار الى ركنين من اركان الصومعة . أحدهما للحصان والآخر للفراش . ثم وضع على المائدة صفحة بها حفنتان من الحمص فلما اراد الفارس ان يمد يده الى الصحفة ، رده الناسك عنها بعنف، ثم ضم راحتيه وبدا صلاة خيل للفارس انها لن تنتهي. ثم رسم علامة الصليب في ختامها وشمر عن ساعده وبدا يأكل ويدس الحمص في

فمه الواسع ؛ فظهرت أسنانه الكبيرة البيضاء اللامعة . وحذا الفارس الاسود حذوه

ولكي يتمكن من الاكل بسهولة خلع الفارس خوذته ودرعه فظهرت للناسك جمة من الشعر الذهبي الغزير وعينان زرقاوان لهما نظرة ثاقبة . وملامح تدل على النبل والشمم والعزيمة الصادقة وتتناسق تمام التناسق مع بنيته المتينة

فلما رأى الناسك منه ذلك الاطمئنان ، خلع اليرنس وكشف عن راس مستدير كأنه الكرة : واحية سوداء طويلة مجعدة الشعر تحيط بوجه مستدير ملىء الوجنات . وليس في ملامحه ما ينبىء عن تقشف في التغذية او اقامة في دير . ولكن نظرته الصريحة تدل على استقامة وجراة وسلامة طوية . ولكن هذه العضلات الضخمة لايمكن ان تكون وليدة الحمص الجاف . بل الاليق بها قطع اللحم الضخمة التى تمضغها طاحونة فكيه القويين

كل هذه الخواطر جالت بصورة طبيعية فى ذهن الفارس الذكى الفطن وهو يحاول مضغ الحمص الجاف . ولو كان على المائدة شيء من النبيذ لاستطاع ان يتجرع كاسين يستعين بهما على ازدراد هذا الطعام السخيف الذى لم يالفه . ولكن مائدة الناسك كانت خالية من جميع انواع الشراب فلم يستطع الضيف المسكين ان يثابر على المضغ . ووقف الطعام فى حلقه . وفطن الناسك العملاق الى مايعانيه الضيف فنهض عن المائدة واسرع فوضع بين يدى الضيف جرة من الماء القراح وقال :

ــ هذا الماء من نبع القديس دونستان . وكان القديس نفعنا الله ببركاته قد عمد فيها خمسمائة من الوثنيين . سلام الرب عليه !

وبعد أن شرب الضيف جرعة من الجرة تناولها الناسك بين يديه ورفعها الى فمه فشربها عن آخرها . وعندئذ قال الفارس :

ــ أيها الاب الموقر . ارجوك الا تحمل ما ساقوله لك الآن على سوء الظن . ولكن صحتك القوية لاتتفق فى نظرى مع ذلك الغذاء المتقشف الذى تحمل عليه نفسك فى هذه الصومعة . ثم اسمح لى انا الخاطىء ان اسالك عن اسمك ؟

ــ لك أن تنادينى باسم ناسك هورست . فهذا هو الاسم الذى

يعرفنى به أهل الاقليم . ويهمنى ان ابدى لك اعتراضى على لقب القديس الذى يردفونه عادة باسمى . فلست جديرا به . وأنت ما اسمك ؟

ـ أن الناس يعرفوننى باسم الفارس الاسود . وكثيرون منهم يضيفون اليه لقب الخائب !

فلم يستطع الناسك ان يغالب الابتسام ثم قال :

ـ يبدو لى يا سيدى الفارس الخائب ان الطعام العادى لخادم من خدام الرب لا يمكن أن يكفى سيدا تعود على نمط آخر من المآكل فى البلاط

وما دام الامر كذلك فانى اتذكر بنعمة الرب أن حارس الصيد الصالح الذى أودع عندى هذين الكلبين لحراستى ، اهدانى أيضا كمية من المآكل التى يحرم على تناولها تحريما قاطعا . وكنت قد نسيت أمرها

ـ هذا شىء لابد ان يجزم الانسان بوجوده فى صومعتك مادام لك هذان الفكان القويان . ارنى هدايا حارس صيدك !

فنظر اليه الناسك نظرة المستريب . فهو لا يدرى الى أى مدى يستطيع ان يثق بمسافر مجهول الشخصية . ولكن ملامح وجه هذا الفارس كانت تنطق بالصرامة والصفاء . فلم يستطع الناسك الاستمرار فى التمثيل . وقام فاخرج من مخبأ فطيرة ضخمة اقتطع منها الفارس بخنجره قطعة كبيرة دسها فى فمه فوجدها محشوة بلحم جدى مشوى . فسأل الراهب وهو يمضغ :

ـ منذ متى جاء حارس الصيد بهذه الهدية ؟

وكان الناسك يحملق مذهولا شارد الذهن فى هذا الفارس الاكول فقال :

ـ منذ شهرين تقريبا !

ـ منذ شهرين ؟ أن كل شىء فى صومعتك ايها القديس تجرى عليه المعجزات ! فانى أكاد أقسم أن ذلك الجدى الرضيع الذى حشوت به فطيرتك الدسمة كأن يجرى فى أرجاء الغابة منذ يومين على الاكثر !

فظهر الحرج على وجه الراهب وزاد احمرارا ، فاستطرد

الفارس :

ــ وبهذه المناسبة اذكر لك ايها الناسك القديس انى حاربت فى فلسطين . ومن عادات الناس فى تلك البلاد المقدسة ان رب البيت لا يجوز ان يترك ضيفه يأكل بمفرده ، وذلك ليثبت له سلامة طعامه من الشوائب وحسن أعداده وطهوه . ولا اقول ذلك يا سـيدى الناسك عن شك منى فى صفاء نيتك . بل لانى اود ان يقتدى الناس بتلك العادات الشرقية الجميلة الحكيمة

وكانما كان الناسك ينتظر هذه الكلمة ، فهتف

ــ ليكن لك ما تريد ! ورفعا للحرج عنك ونفيا للشكوك فليسامحنى الرب فى الاخلال بنذرى هذه المرة !

وبعدها اصبح الطعام سباقا بين الفارس والناسك ، ايهما يبـدى شهية اقوى وقدرة اعظم على التهام الطعام الدسم . ومع ان الفارس لم يكن قد ذاق طعاما طول النهار ، الا انه بلغ حد الشبع قبل الناسك بوقت طويل . وكان حلقه قد جف ، فغمز بعينه للناسك وقال :

ــ ايها الاب الموقر ، الم يتحفك حارس صيدك الصالح بزق صـغير من النبيذ الجيد ليليق بهذا اللحم المشوى الشهى ؟ هيا ابحث ونقب فى صومعتك وسترى ان ظنونى فى محلها !

فابتسم الراهب وقطع طعامه ونهض الى مخبئه واخرج منه زقـا فى حجم محترم ، وكاسين من قرون الثيران البرية مطعمتين بالفضة . ولم يجد مبررا للاستمرار فى تمثيل دور الناسك ، واقبل يملأ الكاسين ويشرب فى صحة ضيفه . وبعد أن فرغ الزق عن آخره قال الفارس :

ــ انى لفى عجب من امرك ايها السيد الراهب !

ــ لماذا عافاك الله ؟

ــ كيف استطاع فحل مثلك ان يقنع بحياة العزلة والوحدة . ولكنى لا اريد معرفة بواعثك على هذه العزلة . فانى اراك قرير العين تقضى نهارك فى صيد وعول الملك فى غابته ، وتعيش خاليا من الهموم وبينى وبينك ايها الاب ، ماذا يضير الملك ، ان تنقص قطعانه جديا بين الحين والحين !

فقطب الراهب وجهه وقال :

ــ هذه امور شائكة ايها السيد الفارس . فأرجوك الا تعمد الى الفضول فى اسئلتك . والا اضطررت الى تغيير معاملتى لك وفرضت عليك عقوبة تداويك من مرض الفضول . وانى اراك تتفـــاخر بفروسيتك وتحترف مجابهة الاخطار . ولا تبالى بخصم . فما قولك فى هذه الكنوز الثمينة ؟

ونهض الناسك الى مخبئه وعاد بصندوق فيه سيفان عريضان ودرعان مما يستعملها حملة الاقواس فى ذلك الزمن ، وثلاثة اقواس وكنانة سهام ، وعود وادوات موسيقية اخرى لا علاقة لها بالرهبنة فقال الفارس :

ــ حسبك يا سيدى الراهب . لقد ادهشتنى ولكنى ســـألجم لسانى وفضولى . الا اننى ارى سلاحا اود ان اتبارى معك به . هو سلاح الشراب والغناء !

فابتسم الناسك وقال :

ــ اتفقنا يا سيدى الفارس . فلنشرب آذن ونغنى ونمرح . املأ كأسك من هذا الدن الجديد . فلا شيء يرهف السمع ويجلو اوتار الصوت مثل الشراب الجيد

واخذ الفارس والناسك يشربان ويغنيان . وكان الفارس ذا صوت سليم وعزف جميل وتفنن فى الغناء ، ولما فرغ من غنائه ، تناول حوارى القديس دونستان العود وتغنى بأغنيات لا تمت الى التقوى والورع بصلة . وبين مقطوعة واخرى كان الاثنان يشربان الانخاب

وظل هذا المهرجان الثنائى قائما الى موهن من الليل . حتى اذا بلغ الذروة سمعت على الباب دقات عنيفة تنبىء بوصول غرباء . .



الفصل الخامس عشر

آمال واعزاء

ونعود الى سيدريك ، فانه بعد ان عثر على ابنه فى شخص الفارس المحروم من الميراث . وشهد انتصاره ورآه جريحا جرحا بالغا ، تنازعته قلبه عواطف متباينة . فهو شديد الكبرياء متمسك بحقوقه الابوية المطلقة ، شديد الحرص على شهرته بالصلابة والثبات عند قراراته . فلم يستطع ان يتراجع عن نذره القديم بالبراءة من ابنه ، لانه خالف ارادته ورحل الى فلسطين تحت لواء ريتشارد . وحال ذلك دون قيامه بالرعاية الواجبة نحوه . ولكنه فى الوقت نفسه كان يحب ذلك الابن الوحيد ، ويعلم انه تسرع فى لحظة غضب بحرمانه من عطفه . وكان ايضا شديد الفخر ببسالته وكفاءته فى القتال

ولما تفرق الناس من الحلقة طلب من وكيل دائرته ان يبذل عنايته لولفريد وينقله اذا لزم الامر الى روذروود . وبعد برهة عاد اليه الوكيل ليبلغه ان الجريح تولت نقله عربة فاخرة سوف لايحس فيها بعناء الطريق . وان ذلك تم قبل وصوله . فلم يجد الا سائسه جورث وهو من عبيد سيدريك . فاتى به الى مولاه

وبعد ان اطمأن سيدريك على مصير الفارس ، ترك العنان لغضبه وكبريائه وسخطه على عصيان ولده وتمرده . وقال بمرارة :

ــ فليذهب حيث شاء ! وليتحمل مسئولية ضلاله واقدامه على هذه الالاعيب مع الفرسان النورمانديين ، مادام ذلك افضل عنده من ملازمة ابيه ، والتمسك بتقاليد اجداده السكسون !

وعندئذ تدخلت الاميرة روينا للدفاع عنه ، فلم يتردد سيدريك فى سلقها بلسانه بغير رحمة ، وقد نسى انها سليلة الملك الفريد :

ــ اصمتى ! انا لا اسمح لك بالكلام فى هذا الموضوع ! وتأهبى

المادبة الامير . فان النورمانديين لم يعودونا منذ موقعة هاستنجس تلك المجاملات المهذبة . ولذا رايت أن احضر المادبة ، ولو لأظهر لهم رباطة جاشي ، وامتلاكي لزمام نفسي في يوم انتصار سكسوني على اشجع شجعانهم !

فقالت الاميرة روينا في جد وحزم

ـ ولكنني لن احضر المادبة !

وكان سيدريك يعلم انه لاسبيل الى حمل الاميرة روينا على الرجوع عن قرار اتخذته . فلم يلح عليها

وهكذا ذهب سيدريك وصديقه أثيلستان الذى لايمكن ان يفلت فرصة طعام فاخر . ولم تذهب معهما الاميرة الى قلعة اشبى .

ولما عاد سيدريك من القلعة راى امامه المسكين جورث راعى الخنازير الآبق ، فصاح بعبيده وخدمه :

ـ كبلوا هذا الخائن بالاغلال ! والآن هيا الى الخيول لنعود الى دارنا على الفور !

فقال أثيلستان :

ـ ولاسيما أنه ينبغى الا نتاخر عن موعد العشاء الذى اعده رئيس دير ويدولد خصيصا لنا

وهكذا ساروا بسرعة في طريق العودة . ووصلوا الى الدير ، وجلسوا الى المائدة حتى ساعة متاخرة . ولكن ذلك لم يمنعهم من تناول طعام الافطار في ساعة مبكرة من الصباح التالى بشهية الضوارى !

وعند مبارحتهم أرض الدير ، حدث شيء يعتبر نذير سوء . فقد اخذ كلب اسود كبير ينبح نباحا غير مألوف . والسكسون من اهل التطير والتشاؤم . فصاح سيدريك في ضيق صدر :

ـ فلنسرع حتى نصل قبل حلول الليل . واما هذا الكلب فانى اعرفه . انه فانكس كلب جورث ، وهو هارب كصاحبه !

ولكن ذلك لم يمنع سيدريك من الانتقام ، فرمى الكلب بسكين جرح بها الحيوان المسكين وجرى مبتعدا بين اشجار الغابة وهو ينبح متألما . ولم يستطع جورث المكبل بالاغلال أن يحرك ساكنا وانسكبت الدموع من عينيه . وقال لواميا .

ـ ما اعجب هذا الرجل ! لقد تخلى عن ابنه بالامس وهو جريح . وهاهو ذا اليوم ينكل بى ويكلبى . واقسم بجميع القديسين انى لن ابقى فى خدمته بعد اليوم . وارجوك ياوامبا ان تذهب وتبلغه ان جورث يعتبر نفسه متحللا من يمين الولاء له

فهز وامبا كتفيه وقال له :

ـ انى ابله ومعتوه ، ولاتعتمد على فى تبليغ هذه الرسالة . ولست مستعداً لتلقى السكين الاخرى التى اراها فى حزام سيدريك . وهو كما تعلم قلما يخطىء الهدف

واضطر راعى الخنازير الى الانطواء على غيظه واستنكاره ، ولاذ بالصمت بقية الرحلة فلم يفلح وامبا فى التسرية عنه

أما سيدريك واثيلستان فكانا يقطعان الوقت وهما راكبان بالكلام فى الموقف الراهن . وتحميس سيدريك للقيام بحركة يسترد بهـا السكسونيون من ايدى الغاصبين حقوقهم المفقودة . واخذ يشرح خطة تلك الحركة بحماسة لصديقه . ويبين له ان حزب السكسون لابد له فى تلك الفترة من زعيم ، او على الاصح ملك ، وهذا الملك وجده سيدريك فى شخص اثيلستان

ولئن كان اثيلستان فاتر الهمة الا انه قوى وغنى ، ويعول على اخلاقه وعهوده . وفيه دماثة تنأى به عن الطغيان . ولكى يزيد سيدريك من انصار اثيلستان ، عزم على تزويجه من ربيبته روينا ، وهى السليلة الوحيدة والوريثة الطبيعية للملك الفريد آخر ملوك السكسون الاقدمين الذى سقط فى موقعة هاستنجس

وكانت العقبة الوحيدة فى طريق ذلك الزواج السياسى هو الشغف المتبادل بين ابنه الوحيد والاميرة روينا . ولكن سيدريك كان يضع مصلحة الوطن العليا فوق كل اعتبار ، ولذا لم يتردد فى تحطيم ذلك العائق العاطفى ، وضحى بابنه ولفريد

وليس معنى هذا ان سيدريك استطاع حين ضحى بوحيده أن يقنع الاميرة روينا بوجهة نظره . فعبثا حاول اغراءها بعرش خيالى

اجل ان تربيتها العالية لا تسمح لها بالخروج على طاعة سيدريك ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تشعر باى ميل نحو اثيلستان . واعلنته انها تفضل الرهبنة فى دير على اقتسام الحياة والعرش معه

وهكذا نجد ان ظهور ولفريد المفاجيء قد عرض للخطر الشديد جميع مشروعات سيدريك . وكان أثيلستان يصغى لكل مايقوله سيدريك باهتمام عظيم . ولم يكن لديه اى مانع من القيام بدور الملك .

اما اعلان نفسه مطالبا بالعرش وخوض الحروب فى ذلك السبيل فمسالة لايميل اليها بطبيعته الوادعة وحبه للسلام والراحة . ولذا اخذ يجسم العقبات امام انظار سيدريك

وأما الاميرة روينا . فكانت غارقة فى خواطرها التى اثارتها حلقة أشبى وما اظهره اثيلستان فيها من مناورات انتهت بهزيمته أمام ايفانهو

وحانت ساعة الغداء المقدسة عند أثيلستان فاشار بالوقوف ، ونزل الجميع فى ظل شجرة كبيرة ، وبسطوا المائدة التى زودهم بها رئيس الدير وهى حمولة بغل من الاطعمة

وبعد أن اكلوا وشربوا اسرعوا بالركوب ليصلوا الى رودرود قبل حلول الظلام



الفصل السادس عشر

مفاجأة

وأثناء مسيرهم خرقت آذانهم ضجة اصوات تصرخ فى طلب الغوث . فاتجهوا الى مصدر هذه الضجة ، فادهشهم ان يجدوا محفة موضوعة على الارض وقد فتحت ستائرها بعناية . وبالقرب منها جلست امراة شابة فى ثياب فاخرة ، على الطراز الاسرائيلى ، وبجوارها شيخ مسن على راسه قلنسوة صفراء هى العلامة المميزة لبنى جنسه . وكان يبدو على كليهما منتهى الضيق والارتباك

وكان هذا الشيخ هو اسحاق صاحبنا ، فأوضح ان الرجال الستة الذين استأجرهم لحراستهما ولحمل الصديق الجريح الذى معهما الى مدينة دونكاستر جنوبى مدينة يورك ، عندما علموا ان عصابات العصاة ترود هذا الطريق ولوا فارين . ولم تفلح الوعود المبذولة فى ردهم على أعقابهم . فتركوهما والصديق الجريح لمصيرهم التعس . والرجل وابنته يرتعدان جزعا من انقضاض العصاة عليهم ، وهم فى اعتقادهم من حثالة الخلق الذين لا يرعون عهدا ولا يقيمون لشىء حرمة

وانطرح اسحاق راكعا على ركبتيه تحت قدمى سيدريك وأخذ يرجوه ويتوسل اليه كى يسمح له بالصحبة . . .

واظهر اثيلستان معارضة واضحه لهذا الرجاء . لانه لم ينس ماحدث لهم فى حلقة اشبى من المهانة بسبب ذلك اليهودى . ولكن لحسن حظ اسحاق ان سيدريك والاميرة روينا لم يكونا على رأيه . وابدت الاميرة شيئا من القلق بخصوص هؤلاء العصاة ، وان كانت تعلم انهم يحترمون ممتلكات المسافرين السكسون ويبقون على حياتهم . بيد ان قلقها جعلها تشعر بوجوب حماية اليهودى وابنته ،

فقالت :

ــ ان الرجل شيخ مسن ضعيف ، والفتاة شابة حسناء . اما صديقهما فجرحه خطير فيما يظهر . وذلك كله يحتم علينا ان نبسط عليهم حمايتنا ونقدم اليهم مااستطعنا من العون . فلننزل الحمولة عن بغلين من بغالنا ونوزعها بين العبيد . كي يحمل البغلان محفة الجريح . وليركب اليهودى وابنته حصانين من الجياد التى يجرها السياس

واستقبل اسحاق وربيكا ذلك الاقتراح الكريم بسيل فياض من الدعاء . ووافق سيدريك عليه . واشترط اثيلستان شرطا واحدا وهو ان يقوم وامبا مستعينا بفخذ الخنزير التى يتسلح بها ، بابقاء اليهودى فى مؤخرة الموكب . ولكن المهرج أجابه قائلا :

ــ لاتعتمد على فى هذه المهمة . فقد تركت سلاحى فى الحلقة ، ولاضير على فى ذلك وقد ترك فرسان اشد منى فتوة اسلحتهم على ارضها طوعا او كرها !

فاحتقن وجه اثيلستان لذلك الرد العنيف الشارص . اما الاميرة روينا فانها والحق يقال كانت تتهلل فرحا وشماتة

وانتهز وامبا فرصة الترتيبات الجديدة وخفف قيود جورث بعض الشىء . وبعد ذلك تمكن جورث بمجهوده الشخصى من التخلص من القيود عند حلول الظلام ، ثم اختفى بين اشجار الغابة

وفجأة وجدت القافلة الصغيرة نفسها محاطة بعصابة من الرجال المسلحين وقد غطوا وجوههم بأقنعة من المخمل الاسود وصاحوا بهم :

ــ التنين الابيض ! مار جرجس ! وانجلترا !

وكانت تلك صيحة الحرب التى يطلقها العصاة . وفى لحظة وجيزة وقع سيدريك واثيلستان فى الاسر . ولكن بعد ان قتل سيدريك رجلا . واما اثيلستان فوقع عن دابته بسهولة فانقض عليه المهاجمون واوثقوه بالحبال . وكان الخدم والعبيد مثقلين بالاحمال فلم يستطيعوا دفاعا . وكذلك وقع فى الاسر اسحاق وربيكا والجريح الذى معهما . ولم يحسن الدفاع عن نفسه الا وامبا الذى امتشق سيف احد القتلى وتمكن من تغطية انسحابه الى اغوار الغابة حيث اختفى .

وهناك وجد صديقه جورث وشرح له ماحدث

ولما علم جورث ان سيده وجميع من معه أسرى فى يد العصاة وقطاع الطرق ، دفعته الشهامة الى محاولة التدخل لانقاذهم . فصاح به وامبا :

ـ ولكنك تخليت عن خدمته منذ برهة !

ـ هذا صحيح . ولكنه كان وقتئذ هو الاقوى

وهم وامبا ان يذهب مع جورث ، واذا بشخص غريب يعترض طريقهما ويأمرهما بالوقوف . ومن منظر ثيابه ادرك الاثنان انه من عصابات العصاة . بيد أن وجهه كان مكشوفا ، فعرفا فيه بطل الرماية بالسهام لوكسلى . فسألهما :

ـ اتستطيعان ان تخبرانى من ذا الذى يجرؤ فى هذه الغابة على الصيد وقطع الطريق على المسافرين ؟

فقال وامبا بجرأته المعهودة :

ـ اذا قارنت ثيابك بثيابهم وثياب أصحابك لوجدت تشابها تاما . فانت بهم اعلم !

فقال لوكسلى :

ـ اذن سأستطلع انا الحقيقة بنفسى ، فانتظرانى هنا ولا تتحركا حتى أعود

ولم يطل غيابه . ولما عاد قال :

ـ ياصديقى جورث . عرفت هؤلاء الرجال وعرفت غرضهم . ومن الحماقة ان نهاجمهم نحن الثلاثة وحدنا . ولذا سأجمع مااستطيع من القوة والرجال كى افوت عليهم غرضهم . فاتبعانى كى نجمع الرجال



الفصل السابع عشر

تجمع الخيوط

وكان الطريق الذى سار فيه الثلاثة طويلا . فاستغرقوا ثلاث ساعات من السير الجاد حتى وصلوا الى محجر قديم أمامه رحبة فى وسطها شجرة بلوط ضخمة جلس تحتها اربعة من رماة السهام أو خمسة . وعن كثب منهم وقف ديدبان يحرس المكان ويطلق النذير عند أول خطر

ـ من القادم ؟

ـ امين !

ثم نطق لوكسلى بكلمة السر فمر مع صاحبيه . وسأل :

ـ ابن الطحان ؟

ـ على طريق روزدرهام

ـ وكم معه من الرجال ؟

ـ ستة . ومن المنتظر حصولهم على غنيمة طيبة

ـ والآن دال ؟

ـ على طريق والتنج حيث سيمر أسقف أيمر

ـ فكرة طيبة ! والناسك ؟

ـ فى صومعته

ـ اذن ساذهب اليه فورا !

وكان من الواضح أن لوكسلى هو زعيم العصابة . واستطرد قبل أن ينطلق قائلا :

ـ كدت انسى اهم مافى الموضوع . فليذهب احدكم . وليكن اسرعكم ، الى قلعة جبين الثور فى الحال . فهنـاك عصابة يرتدى افرادها زينا ستذهب الى هناك بجماعة من الاسرى . فليرقبهم

ويخبرنا بجميع تصرفاتهم . فهم أدعياء من واجبنا ان نؤدبهم

واتجه لوكسلى وفى صحبته وامبا وجورث الى صومعة ناسك هورست . ولما وصلوا الى هناك لم تكن دهشتهم هينة لما وجدوه من الضجةفى داخلهامما لايشبه فى كثيرأو قليل سكون الاديرة والصوامع ففى تلك اللحظة بالذات كان الناسك وضيفه يغنيان معا هذه الاغنية:

« ياصديقى يوسف ! ايها الماجن المراح !

« هات دن النبيذ وهات الاقداح !

« واشرب ولا تكترث لشىء ياصاح !

« فانما تصفو الحياة لمن يشرب الخمر الصراح !

« فذاك حقا هو الظافر الذى تحالفه الافراح !

« والخاسر حقا من يعرض عن بنت الراح ! »

فلما طرق الثلاثة الباب بعنف توقف المغنيان عن الغناء . وقال الناسك لضيفه :

ــ انهم مسافرون آخرون فاجأهم الليل وسط الغابة . ولست احب ان تسىء بى الظن . ولكن لكل انسان فى هذه الدنيا ياسيدى الفارس الخائب أعداء . وأخشى أن يسىء الحمقى القادمون تأويل الضيافة البهيجة التى قدمتها لك الليلة !

فقال الفارس :

ــ لمن تقول هذا الكلام ؟ من أساء بك الظن أدبته !

ــ ضع خوذتك ياصديقى وردد معى ما سأشدو به من غير أن تفكر فى معنى كلماتى !

وشرع الناسك يجأر بترنيمة كنسية وهو يزيل آثار المأدبة . واخذ الفارس يردد معه الترنيمة وهو يرتدى درعه وسلاحه . وصاح صوت من الخارج :

ــ ما هذه الترانيم العجيبة فى هذه الساعة من الليل ؟

وحالت الضجة بين الناسك وبين معرفة صوت المتكلم فصاح به :

ــ سامحك الله ياسيدى المسافر! سر فى طريقك على بركة الله . ولا تعكر على تلميذ القديس دونستان صلواته هو وزميله المحترم !

ــ ايها الراهب المشلوح افتح للوكسلى !

فقال الراهب لضيفه :

ـ لا داعى للخوف . فهذا هو حارس الصيد الصالح الذى حدثتك عنه

ـ مفهوم مفهوم ! انه حارس صيد صالح مثلما انت ناسك تقى ورع • لاشك عندى فى هذا • لكن افتح الباب ، والا اقتحمته

وعرف الكلبان صوت لوكسلى فلم ينبحا . واسرع الناسك يفتح له الباب . فلما راى الفارس الاسود قال :

ـ من هذا الذى عندك ايها الناسك ؟

ـ رجل صالح . وهو اخ فى رهبنتنا قضينا الليل معا فى التراتيل !

ـ وهل نسيت التعليمات ؟ امجنون انت حتى تستقبل شخصا لا تعرفه ؟ لقد افرطت فى الشراب ولا شك !

فتدخل الفارس الاسود قائلا :

ـ ايها السيد الشجاع لا تغضب عليه . فما كان باستطاعته ان يرفض تقديم الضيافة الى ، لانى كنت حريا أن احصل عليها عنوة !

فصاح الراهب وقد احمرت عيناه :

ـ عنوة ! انتظر قليلا حتى اغير البرنس واضع خوذتى الخضراء . وحاذر على راسك عندئذ من هراوتى !

وبسرعة فائقة ارتدى خوذته ودرعه الخضراوين بمعونة وامبا . فاذا به احد العصاة الخارجين على القانون ، مسلحا بسيف وقوس وسهام وهراوة ضخمة . فبدا فى زيه الطبيعى الذى يلائم شخصيته

وفى هذه الاثناء كان لوكسلى قد انتحى جانبا بالفارس الاسود ، وقد عرف فيه بطل الحلقة الذى غير مجرى المعركة . وادرك انه يمكن ان يغدو حليفا يعول عليه . واخبره بما حدث لسيدريك ومن معه

ولم يتردد الفارس الاسود فى مصارحة لوكسلى بأنمصير المظلومين والمضطهدين والضعفاء لايجد نصيرا اشد حماسة منه . وقبل على الفور المساهمة فى الحملة لانقاذهم . ولكنه أصر على كتمان اسمه . فكتم عنه لوكسلى اسمه ايضا ورحب بمعونته

وعلى الفور اتجه الرجال الخمسة وجهة جديدة . ولكن بعد ان استمهل الناسك رفاقه وركع امام ينبوع الماءوشرب منهكمية ضخمة، وغسل وجهه ليفيقه الماء البارد ، وان كان قد زعم ان بركة خاصة فى

ماء نبع القديس دونستان هى التى يلتمسها لينجح فى غزوته !

وصاح لوكسلى بالفريق :

ــ الى الامام ايها الرفاق . ولنشحذ جميع قوانا . فنحن فى حاجة الى كل شجاعتنا وقوتنا للهجوم على قلعة جبين الثور

فصاح الفارس الاسود :

ــ ما هذا الذى تقول ؟ هل جبين الثور هو الذى يعتقل ويسلبه رعايا جلالة الملك ويقطع طريق جلالته على رعاياه ؟ هل أصبح هذا الرجل صعلوكا لصا جبارا ؟

فقال لوكسلى :

ــ لقد كان طول حياته بهذه الصفة !



الفصل الثامن عشر

في الأسر

ونعود الان الى سيدريك ورفاقه المنكودي الحظ . فنجد انه اثناء الطريق الطويل الى قلعة جبين الثور لم يستطع أن يستخلص من آسريه سر هجومهم وغرضهم من ذلك

وادهشه شيء غريب . فهؤلاء الرجال لم يكونوا على معرفة بمسالك الغابة . مع ان العصاة يعرفون تلك المسالك معرفة تامة . فقال لهم :

ـ المفروض انكم انجليز سكسونيون . ومع ذلك اراكم تعتدون على مواطنين لكم كما لو كنتم نورمانديين . فماذا تريدون مني ؟ وما الغرض من هذا الاجراء العنيف ؟

ولما لم يظفر بجواب صاح بهم :

ـ امصرون انتم على التزام الصمت كانكم حيوانات عجماء ؟ انكم تنزلون بسلوككم دون مستوى هذه الحيوانات !

وكان الحراس حريصين على عدم الرد عليه حتى لاتفضحهم لهجتهم . واخيرا وصل الموكب الى طريق واسع يبدو في نهايته حصن توركيلستون ، وهو قلعة جبين الثور الحصينة . وقد شيدت على أحدث طراز لحصون ذلك العهد . فهناك برج ضخم مرتفع مربع الشكل . وهناك سور عال يحيط به خندق عريض عميق . وهناك اربعة ابراج صغيرة مقامة عند الاركان الاربعة . والمعبر الذي يؤدي الى المدخل ينتهي بموقع حصين يجعل الدخول امرا في حكم المستحيل

فلما ابصر سيدريك قلعة جبين الثور ادرك على الفور سر ذلك الاعتداء عليه وعلى اتباعه ، فقال بمرارة بالغة :

ـ لقد اهنت اللصوص وقطاع الطرق الذين يعيشون في الغابة .

فأنتم أيها الانذال اسفل منهم بكثير . خبرونى ايها الاشقياء ما الذى يطمع فيه مولاكم ، ايطمع فى حياتى ام فى اموالى ؟ اذهبوا وقولوا لمولاكم اننى انزل له عن مالى وحياتى معا . ولا اسأله الا شيئا واحدا، أن يترك ربيبتى الاميرة روينا تذهب طليقة السراح معززة مكرمة

ولم يظفر فى هذه المرةأيضا بجواب * واقتيد سيدريك وأثيلستان وحدهما الى قاعة الحصن الكبرى . فاخذ سيـــدريك يذرع القاعة بخطوات كبيرة وهو لايدرى أين ذهبوا بالاميرة روينا . واهاجت هذه القاعة العتيقة ذكرياته فقال يخاطب اثيلستان .

ـ ان لم تخنى الذاكرة فها هنا وقف جدى الاعلى وكان من بين المدعوين الى مائدة صاحب الحصن توركيل . وكان ضيف الشرف هو الملك الباسل المنكود الحظ هارولد . وكان الملك فى طريقه على راس جيشه لقتال النرويجيين الذين حالفوا شقيقه المتمرد توستى .والى هذه القاعة وصل رسول توستى، وقد اكتظت بنبلاء السكسون فاخترق الصفوف ووقف امام عرش هارولد ثم انحنى قائلا « مولاى الملك . ماهى شروطكم كى يلقى شقيقكم السلاح ويطلب الصلح ؟ ».

ـ وبماذا اجاب الملك رسول شقيقه المتمرد ؟

ـ كان جوابا جديرا بملك عظيم . قال : « شروطى هى محبة الاخ لاخيه ، وسامنحه دوقية نور تمبرلاند توكيدا لتلك المحبة » وعندئذ قال له الرسول : « وماذا تعرض على حليفه المخلص ملك النرويج؟»

ـ وماذا كان رد الملك ؟

ـ كان جوابه جديرا بملك عظيم أيضا . شمخ بأنفه وقال :«اعرض عليه سبعة اقدام مربعة من ارض انجلترا . ولما كانت قامته اطول من المعتاد فيما سمعت ، فلا بأس أن نزيدها بضع بوصات ! » فارتجت هذه القاعة بالتصفيق الحاد . وشرب النبلاء السكسون نخب الملك . ونخب الملكية الجديدة التى سيظفر بها قريبا ملك النرويج !

فهتف اثيلستان :

ـ ليتنى استطيع ان افعل فعلهم . فان لهاتى جافة وبى ظمأ شديد !

وتجاهل سيدريك ذلك التعليق واستطرد :

ـ وحمل الرسول ذلك الرد الى سيده . فأبى توستى ان يتخلى

عن حليفه ملك النرويج ، ونشبت تلك المعـركة الدامية التى سقط فيها توستى وملك النرويج قتيلين ! ومن ذا الذى كان يخطر له انك يا اثيلستان ، ياسليل الملك هارولد ، ستكون معى اسـيرا بين يدى نورماندى حقير فى هذه القاعة بالذات التى شهدت موقف عز لجدك الخالد !

ــ هذا شيء يؤسف له فعلا . ولكن الاهــم من ذلك يا عزيزى سيدريك أن تعرف لنا هل ينوى هؤلاء المنـاكيد ان يقتلونا جوعا وعطشا ؟

فغمغم سيدريك قائلا :

ــ عبثا يحاول المرء ان يكلم هذا الرجـل فى شيء لايتعلق بمعدته ! لماذا تقمصت ارواح اجداده النبيلة جسدا كأجسـاد السوقة ؟ ولـكن الامل عظيم فى قدرة روينا على تهذيب هـذا المخلوق ، والارتفاع به الى مستوى جدير بنسبه الرفيع

وفى هذه اللحظة انفتح الباب ودخل اربعة من الخدم حاملين مائدة عليها اللحوم والانبذة . تفوح منها الروائح الشهية . فهجم اثيلستان على المائدة واكل بشراهة عظيمة

ولم يطل تمتع الاسيرين بالهدوء . لان دقات الطبول قطعت عليهما طعامهما . وساد الهرج والمرج فى أرجاء القلعة . فأدركا ان احداثا هامة قد وقعت أو هى وشيكة الوقوع !



الفصل التاسع عشر

فى غرفة التعذيب

ونترك الان صاحبينا السكسونيين فى حيرتهما . ونعود الى رفاقهما الذين نعرفهم من قبل وكانوا قد وقعوا معهما فى ايدى قطاع الطرق ، او ايدى من تنكروا فى زى قطاع الطرق

أما اسحاق اليهودى العجوز فكان قد فرق بينه وبين ابنته فى غلظة، وألقى به فى زنزانة معتمة رطبة تحت سطح الارض ، تنفذ رطوبتها الى العظام ، وتكاد تتجمد من شدتها الاطراف . وعلى جدرانها سلاسل عتيقة وحلقات ضخمة . وفى ركن منها موقد للنار كان يستخدم فى تعذيب المذنبين

وكان منظر هذه الزنزانة كافيا لالقاء الرعب فى اشد القلوب قسوة . فايقن المسكين اسحاق بالهلاك المحقق . وبدات مخيلته تصور له أفانين العذاب التى تعرض لها أجداده ومواطنوه اليهود على يد محاكم التفتيش وغيرها . بيد أنه تجلد وتماسك ريثما يكشف المعتدون عن نواياهم ومقاصدهم الحقيقية . وجلس القرفصاء فى وسط الحجرة موطنا نفسه على الصمود ما استطاع

وبعد قليل فتح باب الزنزانة فأحدث فتحه صريرا عاليا ، ودخل منه جبين الثور يتبعه اثنان من عبيد بريان المشارقة

وكان صاحب القلعة رجلا مخيفا شكلا وموضوعا . فهو ذو قامة ضخمة . واتساع مابين كتفيه يورث الرعب . وملامح وجهه ونظراته تدل على العنف وعلى القسوة التى لاتقيم وزنا لشىء

وكان العبدان قد خلعا عنهما ثيابهما الزاهية الالوان ، وشمرا اكمامهما الى مافوق المرفق ، فكان منظرهما اشبه بصبيان الجزارين حين يهمون بالقيام بمهنتهم المخيفة . وكان كل منهما يحمل سلة

ملای بآلات وادوات غريبة الشكل . وباشارة من جبين الثور وقفا فى مكانهما جامدين ، وأقفل جبين الثور باب الزنزانة بالمفتاح ثم اتجه الى اليهودى العجوز ورشقه بنظرة ، كما يجس الثعبان بنظراته فريسته فينومها ، ولا تستطيع الفريسة ان تأتى بحركة او تتلفظ بكلمة

واخيرا قطع جبين الثور الصمت وقال لاسيره فى صوت عميق أجش :

ـ اسمع يا انجس كلب انحدر من سلالة الكلاب الملعونة ! اترى هذا الميزان الذى فى يدى ؟

فاومأ اليهودى براسه . فقال النورماندى :

ـ عظيم ! ستقوم الآن بوزن ألف مارك من الفضة !

ففكت هذه الصدمة عقدة لسانه وصرخ :

ـ يا ابانا ابراهام ! ومن من البشر سمع بمبلغ باهظ كهذا فى حوزة مخلوق ؟ الف مارك من الفضة ؟! ولكنك ان فتشت جميع بيوت عشيرتنا فى يورك بما فيها بيتى انا لما استطعت أن تعثر على عشر هذا المبلغ !

فقهقه جبين الثور وقال :

ـ ان كانت الفضة نادرة بهذا الشكل لدى عشيرتكم . فامرى الى الله . وسارضى بالذهب ! وساقبل ماركا ذهبيا نظير كل ستة ريالات من الفضة وفى مقابل ذلك ستعفى جثتك المتهدمة من عذاب لايمكن ان تتصوره !

فارتعد اليهودى واخذ يصيح :

ـ الرحمة الرحمة ! ايها السيد النبيل ! انى عجوز وضعيف ! انا دودة حقيرة ، واى مجد لك فى سحق دودة حقيرة !

فلم يهتز جبين الثور بل قال فى تهكم :

ـ لا لزوم لهذه المناحة . فانا حين اطلب نواحا سانشده عند ارميا . اما انت فاريد منك شيئا آخر . اريد ذهبا . واياك انتتوهم ان وعيدى دخان فى الهواء . فانى اقسم بالانجيل الذى لاتؤمن انت به ، أن عزمى اكيد لا رجعة فيه . فان لم تمتثل قدمت لك البر ... !

واشار جبين الثور بيده فاخرج العبدان من سلتيهما فحما نباتيا

وزجاجة زيت ومنفاخا . وعندئذ قال جبين الثور :

ــ يا اسحاق . اترى هذه السفافيد المصفوفة فوق الموقد؟ سنعريك من ثيابك حتى تصير كما ولدتك المرحومة والدتك . ونرقدك فوق هذه السفافيد الحديدية بكل حدب ورعاية . وسيتولى احد هذين الرجلين الطيبين تدليك اعضاء جسمك كلها بالزيت . اما الآخــــر فيشعل النار من تحتك في الموقد وينفخ فيها بالمنفاخ . والان اختـــر لنفسك ما يحلو : اما الشواء واما الذهب

فجحظت عينا اسحاق وقال :

ــ كلا ! لن تبلغ بك قسوة القلب هذا المبلغ !

فقال جبين الثور ساخرا :

ــ اتظنني وقد شهدت الالوف من المسيحيين رفاقي في السلاح يهلكون بالنار والحديد ، سوف اتراجع امام تضرعات يهودي حقير مثلك ؟ هيا ايها الرجل ضع بين يدي جزءا مما سرقته ونهبته منا ! وللمرة الاخيرة اخيرك بين انقاذ جلدك وانقاذ مالك !

ــ وكيف اختار وليست لدى الامكانيات لتلبية طلب باهظ كهذا ؟

ــ حسبك ! هيا اخلعا عنه ملابسه !

فلما راى اسحاق الموقد وقد اشتعلت فيه النيران ونفخ فيهـــا العبدان خانته شجاعته وصاح بصوت مخنوق :

ــ سادفع ! سأدفع ! انى لا أملك هذا المبلغ ولكنى سأتسول طارقا ابواب جميع اخوتي عسى ان يرقوا الى فاجمع منهم هذا المبلغ الخيالي فمتى وأين تريد المبلغ ؟

ــ هنا . فوق ارض هذه الزنزانة نفسها والا فهل تتخيـــــل انى ساتركك تخرج من هنا قبل ان اتسلم الفدية ؟ فلو كنت أنت في يورك الان ، في حجرة خزينتك ، وحضرت انا لاقترض منـــك ، لما ترددت في املاء شروطك . اما هنا فأنت تحت رحمتي

ــ اذن يجب يامولاي الفــارس النبيل ان أبعث ابنتي الى يورك بجواز مرور موقع من نبالتك :

فصاح جبين الثور متعجبا :

ــ ابنتك ؟ ماذا تقول ؟ لقد أهديتها الى الفارس بريان قائد فرسان المعبد ، لانه كان بحاجة الى خادمة شابة حسناء !

فافلتت من فم اسحاق صيحة ياس واسى وصاح :

ــ ابنتى انا ؟ صورة المرحــومة امها راشيـــل تنحط الى درك الخدم ؟ ! وهى التى كانت ايسر رغباتها ونزواتهـــا امرا مقدسا فى نظرى ! استحلفك بوالدتك التى تقــدس ذكراها أن ترفع عن طفلة ضعيفة عزلاء ذل هذا الهوان ! اتوسل اليك !

ولما راى جبين الثور لايظهر شفقة او رحمة صرخ يائسا :

ــ ايها اللص ! ايها النذل ! لن ادفع شيئــــا ! رد الى ابنتى ! ان حياتها وسلامتها أعز عندى الف مرة من النقود التى تطمع فيهــا . ابق عليها وخذ حياتى ان شئت !

فهز جبين الثور كتفيه العريضتين وقد فرغ صبره وقال :

ــ سنرى هل ستدفع ام لا ؟ !

وعلى الفور اخذ العبدان الشرقيان يجردان الشيخ من معطفه . ثم شرعا فى نزع ثيابه الداخلية عنه . واذا بأنغام بوق تتردد عنـــد مدخل القلعة . فدهش جبين الثور وترك المهمة الجهنمية التى كان بصددها . وخرج مع العبــدين ، مخلفا اسحاق المسكين لخواطره وهواجسه



الفصـــل العشـــرون

محاولة إغراء

اما موريس دى براسي فظل مصمما على المضي في خطته الخرقاء ، ولذا دخل الى الحجرة التي حبست فيها الاميرة روينا . وكان قد بدل ثيابه وارتدى آخر مستحدثات الموضة لازياء الرجال في ذلـك العصر . والحقيقة ان قائد حرس صاحب الجلالة الامـير جان كان يعتمد على مزايا مظهره الخلاب ، ورشاقة حركاته ، وعذوبة لسانه ، كي يستحوذ على قلب الاسيرة الحسناء

ولم يكن براسي بالذى يجهل أن سليلة الملك الفـــريد من اغنى الوارثات في انجلترا . ولذا قرر أن يستخدم أقصى ماف استطاعته من وسائل الاغراء بشخصه وخفة روحه وحضور ذهنه ، كي يصـــل الى غرضه . فالفوز بتلك الاميرة شيء يستحق العناء

ولم يطل الوقت بالقائد الوسيم الانيق حتى تلقى الاستجابة الاولى من الاميرة التي استقبلت محاولاته الاستقبال اللائق بها ، قائلة :

ـ انك ايها السيد الفارس قد اظهرت امام ناظرى ما لحياة البلاط لديكم من جاذبية عظيمة وبهاء ورونق . وأبديتم رغبتكم في ادخالى تلك الحياة . فاعلم اذن ياسيدى الفارس انه لو قدر لى في يوم من الايام ان اغادر الدار المتواضعة التي نشأت فيهـــا ، فسيكون ذلك بمشيئة الله كي أربط مصيرى بمصير شخص اعرفه تمام المعرفة ، واعلم انه لم ينكر في يوم من الايام لتقـــاليد آبائي وأجدادى ولم يحتقرها . . .

وكان هذا التعريض اوضح من أن يتجاهله براسي . فقال لها :

ـ اجل . اني اعلم أن فؤادك عامر بذكرى ولفريد ايفانهو . فاعلمى اذن انه وقع اسيرا في أيدينا لاننا وجدناه مع اسحاق وربيكا . وهو

الان هنا فى هذه القلعة . أحضرناه محمولا على محفة اليهودى . ولن يكلفنى الامر سوى كلمة واحدة أقولها لجبين الثور فيتكفل بطريقته الخاصة بتسوية النزاع القديم بينه وبين ابيه ، وبضربة خنجر واحدة ينتقل ذلك المسكين ولفريد الى دار البقاء ، حيث لا معارك ولا زواج !

فثار سخط روينا على ذلك التهكم القاسى وصاحت :

ـ هل تجسر على مثل تلك الخسة ؟

وتذكرت ان سيدريك سجين أيضا ، وهـــو الذى طالما اعتبرته والدها . ففاضت الدموع من عينيها واغرقت وجهها . وعبثا حاول براسى نفسه أن يسرى عنها ويوقف بكاءها . واذا بصوت البوق يدوى فى تلك اللحظة فيدهشه كما أدهش سائر من فى القلعة . ويتيح له فرصة للخروج من هذا المازق

وأسرع براسى ليعرف أسباب هذا النذير المفاجىء . وفى قاعة الحصن الكبرى وجد نفسه وجها لوجه امام الفارس بريان . فقـــال له قائد فرسان المعبد باسما :

ـ انى أميل للاعتقاد بأن صوت النفير قطع عليك خلوتك مع الاميرة روينا . فانى اراك مرتبكا حانقا

فأجابه موريس الانيق قائلا :

ـ بحق السماء ! ما هذه بامراة . وانما هى نافورة تفيض بالدموع . ولم أر فى حياتى كلها احدا يبكى بهذه الصورة . ولما عجزت عن اقناعها بحبى ، لم أجد بدا من تركها لنواحها ..

ـ هذا شىء يؤسف له . ولكن خبرنى يابراسى اين ذهب جبين الثور ؟

فقال قائد الحرس وهو لم يزل حانقا :

ـ انه مشغول بتصفية المسائل الماليه المعلقة مع اسحاق . وانت تعرف أن اليهودى لايقف فى صراخه عند حـــد حينما تنتزع منه نقودا !

وحانت منه التفاتة الى الباب فقال :

ـ وهاهو قادم على كل حال

وأقبل عليهما رب الحصن فقال بغير مقدمات :

ـ انتما بالطبع متشوقان لمعرفة سبب هذه الضجة ، وانا مثلكما .

وقد وصلتنى هذه الرسالة تفسيرا لصوت النفير غير المنتظر . ولاشك ان فيها جلاء السر . فاقرأ لنا يابراسى هذا المكتوب !

فقال براسى وقد احمر وجهه :

ـ انى لم ابلغ من التعليم هذا المبلغ !

فانبرى بريان يقول :

ـ اذن انا الذى ساقرا لكما الرسالة !

وبعد ان القى عليها نظرة صاح متعجبا :

ـ عجبا ! هذا وايم الله تحد واعلان للحرب فى صـــورة قانونية كاملة !

فصاح الاثنان فى صوت واحد :

ـ اعلان حرب ؟ ممن ؟

ـ اسمعا . ساقرا عليكما

« انا وامبا الأبله ابن المرحوم معتـــوه . المملوك للنبيل الحـــر سيدريك السكسونى . وانا جورث راعى خنازير سيدريك المذكور آنفا ، وبمعاونة حلفائنا الذين جعلوا من قضية هذه المعركة قضيتهم . وعلى راسهم الفارس الصالح الملقب بالاسود الخائب ، ورامى السهام الباسل روبرت لوكسلى ، نوجه اليك ياريجينالد جبين الثور ، ونوجه الى حلفائك وشركائك فى الجريمة الانذار التالى :

« انكم قد وضعتم أيديكم عنوةواغتصابا علىشخص مولاناوسيدنا سيدريك المذكور آنفا ، وعلى شخص الآنسة النبيلةالحرةالاميرة روينا، وعلى شخص الرجل النبيل الحر اثيلستان ، وعلى اشخاص بضعة رجال احرار هم حراس المذكورين آنفا . وأيضا على شخص يهودى يدعى اسحاق ، وعلى شخص يهودية هى ابنته ربيكا . وجميع هؤلاء المذكورين آنفا اشخاص مسالمون بينهم وبين جلالة الملك كل صفاء . وكانوا سائرين فى طريق جلالتهالكبير بوصفهم من رعاياهالمخلصين

« وبناء على ماتقدم نطالبكم باطـــــلاق سراح هؤلاء الاشخاص المذكورين آنفا ، وكذلك اطلاق سراح جميـــع عبيـــدهم وحراسهم ومرافقيهم . ورد جميع اموالهم وحقائبهم فى مدى ساعة من تســلم هذه الرسالة . وان يكون تسليم الاشخاص والاشياء المذكـورة الى يدنا او الى يد من ننتدبهم لذلك

« وفى حالة عدم قيامكم بذلك المطلوب ننذركم بأننـــا سنعتبركم لصوصا وقراصنة وخونة . واننا سنشتبك معكم فى معركة مسلحة. بطريق الحصار أو بغير طريق الحصـــار ، وسوف نلحق بكم من الاضرار والتخريب كل مافى استطاعتنا • وقد أعذر من أنذر !

« قد توقع بواسطتنا فى ليلة مولد القديس ويذولد تحت شجرة البلوط الكبرى قرب جبل الغزلان . وكتب هذه السطور بيده رجل قديس صالح من خدام الله وموالى العذراء والقديس دونستان فى كنيسة هورست »

وفى اسفل الوثيقة راس ديك ، هو توقيع وامبا . وصليب هو توقيع جورث . وسهم هو توقيع لوكسلى . اما التوقيع الوحيـــد المكتوب بحروف مجائية وبخط راسخ فهو « الفارس الاســـود الخائب »

وفى بداية الامر اخذ براسى وبريان الانذار مأخذ الهزل ، وجعـــلا يضحكان . اما صاحب القلعة جبين الثور فاخذ المسألة مأخذ الجد. لانه تان يعرف مقدار مهارة رماة السهـــــام حلفاء المهرج وراعى الخنازير . ويعلم انهم خطر يحسب له حساب . وعدد هؤلاء الرماة البارعين لايقل عن المائتين . فاذا حاصروا الحصن كانوا قوة لايستهان بها

ولسوء حظ جبين الثور كان خيرة جنوده غائبين فى مدينة يورك . وليس لديه الا حفنة من الرجال لايصل عددهم الى العشرين . وهو عدد قليل جدا ، لايكفى لمواجهة حالة الحصار

وافضى جبين الثور بمخاوفه الى صاحبيه ، فقال له بريان :

ــ ابعث الى جيرانك من النبلاء واطلب اليهم أن يخفوا لنجـــدة الفرسان الثلاثة النبلاء الذين تجاسر على حصارهم مهـــرج وراعى خنازير وهم فى داخل قلعة توركلستون الحصينة !

ثم انفجر ضاحكا واستطرد :

ــ والان كفى هزلا أيها السيدان ويجب ان نرد ردا لائقا على وقاحة هذين الاحمقين ، وعلى ذلك الفارس الاسود الذى قضى على سمعته لاشتراك مع الاوباش فى حلف واحد .

وباملاء جبين الثور ، كتب بريان قائد فرسان المعبد باللغةالفرنسية

الرد التالى على الانذار :

« أن السيد الفارس ريجينالد جبين الثور ، والسيدين النبيلين الفارسين حليفيه ، لا يقبلون اطلاقا ذلك التحدى من جانب حفنة من العبيد وقطاع الطرق

« اما فيما يتعلق بالاسرى الذين تحت أيدينا فاننا نسمح لكم بارسال رجل من رجال الكنيسة ليسمع اعترافهم الاخير . لان عزمنا قد صح على اعدامهم اليوم . وتلك هى الخدمة القصوى التى فى وسعكم ان تقدموها اليهم ! »



الفصل الحادى والعشرون

الكاهن

وتحت شجرة بلوط ضخمة قاب ثلاثة اقواس من القلعة جلس وامبا وجورث والفارس الاسود ولوكسلى والناسك العربيد ينتظرون الرد على انذارهم التاريخي الذى ارسلوه مع رسول . ومن حولهم انصارهم

واخيرا ظهر الرسول . ولما كان جورث ووامبا ولوكسلى نفسه لا يعرفون حل طلاسم الكتابة ، فقد تعين على الفارس الاسود ان يقوم بتلك المهمة ، وأن يترجم العبارات الفرنسية الى لغة أولئك السكسون الذين تبنى قضيتهم عن طيب خاطر

ولما فرغ الفارس الاسود من قراءة الرد ، صاح وامبا :

— ايريدون اعدام النبيل سيدريك ؟ لابد انك أيها السيد الخائب قد اسأت القراءة !

فأجاب الفارس الاسود فى دماثة بالغة :

— كلا ياصديقى الطيب . ان هذا هو مضمون الرسالة فعلا

فصاح وامبا :

— وما العمل اذن ؟

فقال الفارس الاسود :

— فى رأيى اننا يجب أن نستفيد من الفرصة التى منحونا اياها فنرسل الى القلعة كاهنا . أو بعبارة اصح نرسل احد رجالنا فى ثياب كاهن . وتحت ستار مهمته المقدسة يأتينا من هناك بأوثق المعلومات . وعلى هداها نرسم خطتنا . فهل لى أن أرجو فى هذه المناسبة ناسكنا التقى الورع كاهن كنيسة هورست ان يقوم بهذه المهمة ؟

فصاح الناسك مزمجرا :

ـ الى الجحيم بمشورتك هذه ايها السيد الخائب ! لقد نسيت اللغة اللاتينية بمجرد تبديل ثيابى الكهنوتية . وانى افضل الاحتفاظ بقوسى وسهامى . فانا فى هذا الميدان ارسخ قدما واعظم نفعا . ولكنى مستعد ان اقرض طيلسانى لمن يقبل القيام بهذه المغامرة !

فقال الفارس الاسود :

ـ من يتطوع ليكون كاهنا يدخل القلعة على الاعداء ؟

فصاح وامبا بحماسة :

ـ بحق القديس دونستان انا الذى ساذهب ! فقد نشأنى ابواى لاكون راهبا ولكنى اخترت حرفة التهريج . ولم تزل عالقة بذاكرتى بقايا من الادعية اللاتينية ذات التاثير العجيب على السامعين . وانى لاعلم ان المهمة خطرة لانى ساكون داخل عرين الاسـد . ولكنى باذن الله سأوفق

وعلى الفور ارتدى المهرج وامبا الدراعة الصوفية والبرنس . واخذ يقلد ببراعة تامة الخطوات المتانية الرزينة التى يسير بها القسوس . ويأتى بحركات منح البركة وما الى ذلك كأنه قسيس عريق

وبشجاعة فائقة اخترق وامبا الارض الحرام وطرق باب القلعة ، فلما فتح له الحراس ، رفع يمناه ووزع عليهم البركات ، فقبلوا يده وقادوه الى صاحب القلعـة . فجعل يكلمه ووامبا يوسع كلمـاته بعبارات لاتينية لامعنى لها . واخيرا قال جبين الثور :

ـ وفر ادعياتك لهؤلاء الخنازير السكسون . اذ يجب عليك ان تعدهم اعدادا روحيا اخيرا للذبح ! وعندما تفرغ من ذلك عرج على هنا لانى ساكلفك بمهمة . لا تنس !

وخرج وامبا وهو لايصدق بالنجاة ، فادخلوه على سيدريك . ولما كانت مهمة الكاهن تلقى الاعتراف الاخير ، فقد اخلى الحراس الحجرة ليتركوا الاثنين على حريتهما . وعندئذ قال الراهب المزيف :

ـ فلتحل عليك نعمة الرب الاله السلام !

فسأله سيدريك متعجبا :

ـ ما الذى اتى بك الى هنا يا ابانا ؟

ـ جئت يا ابنى اعدك للموت !

ـ للموت ؟ هل سمعت يا اثيلستان ؟ مهما بلغ من اجرام هـؤلاء

الناس فلن يجسروا على ذلك !

فزفر وامبا زفرة عميقة وقال :

ــ للاسف الشديد هم مصممون على ذلك

ــ اذن يا ابانا أعطنا الاسرار المقدسة

وعندئذ قال وامبا بصوته المعتاد المعروف لسيدريك جيدا :

ــ ليس بهذه السرعة . فمن الافضل أن يقدر الانسان لرجله قبل الخطو موضعها الصحيح !

فصاح سيدريك متعجبا

ــ رباه ! اني أعرف هذا الصوت !

ــ انه صوت وامبا . صوت عبدك المخلص . ولكن الدقائق معدودة والوقت ثمين . فهيا البس بسرعة هذا البرنس واعطني معطفك . وما دام هؤلاء المجرمون ينشدون ضحية ، فلأكن انا الضحية !

وتردد سيدريك متأثرا أمام ذلك الوفاء النادر وفكر في ان يمنح هذه الفرصة الفذة لاثيلستان سليل آخر ملوك السكسون . ولكن وامبا أصر على رأيه قائلا :

ــ انت ولا أحد سواك !

وانضم اثيلستان الى صف الخادم ، فأذعن سيدريك وخلع معطفه بسرعة ، ولبس الدراعة والبرنس وغادر الزنزانة . ولكنه لم يمض بعيدا . لان امرأتين كانتا ترقبان خروجه في الدهليز . فاضطر للوقوف . وطلبت منه ربيكا ان يأتي ليواسي فارسا شابا جريحا

ولم يخطر ببال سيدريك من هو ذلك الفارس . وفي هذه اللحظة اقبلت امرأة اخرى طاعنة في السن كانت مكلفة بحراسة الفتاة وارادت أن تفضي الى سيدريك بسر هام . ودفعت هذه العجوز الفتاة اليهودية ، محذرة الراهب المزعوم من تدنيس ثوبه بالاقتراب منها . ثم ادخلته الى حجرة خاصة بها . فاضطر سيدريك أن يطيعها حتى لا يثير ضجة ويكشف أمره



الفصل الثانى والعشرون

اعتراف

وكانت اجابات سيدريك بطبيعة الموقف مقتضبة مضطربة على طول ان المطالب والاسئلة التى وجهتها اليه ربيكا وحارستها العجوز ، الا أن أذن الحارسة فطنت الى اللهجة الخاصة التى تتميز بها كلمات هذا الراهب فقالت :

ــ انك سكسونى ايها الاب ، فلا تحاول أن تخفى عنى هذا . وقد مضى زمن طويل لم يحضر فيه الى هذه القلعة كهنة . ولكنى أحب قبل ان ارحل عن هذا العالم ، ان اعترف بخطاياى . وان امكن ، أتمنى ان أحصل على غفران كامل . .

وكان الموقف حرجا جدا بالنسبة لسيدريك . فان رفض طلب العجوز ، كان معنى ذلك تعريض تنكره للافتضاح . ولذلك قرر أن يمضى فى تمثيل دوره الى النهاية مادامت الظروف قد فرضت عليه ذلك الدور . فبدأ يستمع الى ماتقوله هذه المجهولة . فاذا بها تبدأ اعترافاتها بهذه العبارة :

ــ لم اكن طول حياتى المخلوقة الحقيرة البائسة التى تراها أمام عينيك . فقد كنت ذات يوم شابة صغيرة السن . وكنت ذات يوم سعيدة حرة . فانا ابنة السيد السكسونى النبيل صاحب هذه القلعة الاصيل ، الشريف توركيل !

فلم يستطع سيدريك ان يكتم صيحة انطلقت من صدره العريض :

ــ ماذا ؟ انت ابنة توركيل صديق ابى ورفيقه فى السلاح ؟ أيمكن ان تكونى أنت أولريت ، التى ظنها الجميع ماتت منذ زمن طويل ، وهاأنذا أجدها هنا !

فحملقت العجوز فى وجه سيدريك وصاحت :

ـ ابى صديق ابيك ؟ اذن لابد أن تكون سيدريك ! ولكن لماذا هذا الزى العجيب الذى ترتديه ؟

ـ ليس لهذا أهمية . اتمى قصتك ايتها المنكودة !

ـ آه ! لقد قضيت حياتى بين جدران هذه القلعة التى اصطبغت وارتوت ارضها بالدماء النبيلة ، دماء أبى واخوتى ، وشاركت القاتل حياته هنا . وفى ذلك وحده جريمة لا كفارة لها !

فصاح سيدريك فى حنق :

ـ اذن انت ايتها المنكودة ، فى الوقت الذى ظنك فيه الجميع ميتة شهيدة مثل سائر افراد اسرتك ، كنت هنا تمرغين شرفك وشرفهم فى الوحل ، ولا تخجلين من الالتصاق بقاتل سلالتك كى تؤمنى حياتك الحقيرة التعسة ؟

فقالت العجوز بصوت مرتعش :

ـ انى استحق كل تقريع وتأنيب . وكل ذم ولعنة . ولئن هبطت الى اسفل درك ، فلم يزل هناك شعور واحد يملأ جوانحى ، وهو ليس بالطبع شعور المودة والتعلق بسيد بغيض ، بل شعور الحقد . فصدقنى انى لم اعش طيلة هذه السنوات الا على امل واحد هو امل الانتقام . وقد حصلت على ذلك الانتقام بأبشع صورة ممكنة . فقد استطعت ان أؤجج نيران الغيرة والحسد ، وأوغر صدر الاب على ولده . وفى ذات ليلة وقد طالت مشاحنتهما أكثر من المعتاد ، وكأنما كانت الشياطين ساهرة فى مهرجان لها بين لهب جهنم ، رايت اخيرا الابن ريجينالد يطعن قلب الاب الذى قتل ابى واخوتى . والآن كم اتمنى ان ارى هذه الجدران تتقوض على رءوس جميع من فيها من المجرمين وشركائهم وشريكاتهم وأنا من بينهم ، ولكن بحق الرحمة امنحنى العفو والمغفرة لخطاياى !

فأشاح عنها سيدريك بوجهه وقال :

ـ انى لست كاهنا . فتوجهى بضراعتك هذه الى الله عز وجل . ومن يدرى ؟ ان رحمته واسعة . فان تضرعت اليه بنية صادقة وكفرت عن ذنوبك ، فقد تحصلين على المغفرة

وهم ان ينصرف فى طريقه ، ولكنها استوقفته قائلة :

ـ لحظة اخرى !. انى اعلم أن جبين الثور محصور . وان اليوم

قد اقترب ليؤدى حسابا عن جرائمه . واعلم ايضـا ان مائتين من الرجال المسلحين يهاجمونه فى هذه اللحظة ، فاسرع بمجرد خروجك وكن على راسهم . ومتى رايت فوق قمة البرج راية تخفق ، ضاعف من شدة الهجوم . والان انصرف ، ودعنى لمصيرى

وفى هذه اللحظة سمع صوت صـــاحب القلعة الفظ يصيح من الخارج :

ـ كفى ثرثرة ايهـــا الراهب ! انك تكثر من التلكؤ مع المعترفين والمذنبين . فهل اعددتهم للموت ؟

فأجابه سيدريك بكلمات متعثرة متقطعة :

ـ لقد اعددتهم لكل شىء

فقال جبين الثور :

ـ ان لهجتك سكسونية . ولم افطن لهذا من قبل

فقال سيدريك على الفور :

ـ لقد نشأت فى دير القديس ويذولد السكسونى

فقنع جبين الثور بهذا الرد وقال :

ـ هيا بنا من هذا الممر كى اخرجك من باب الحصن الامامى . ولكن قل لى ، اتعرف القراءة ؟

فقال سيدريك :

ـ انا لا اقرأ شيئا الا كتاب الصلوات . ومن حســن حظى انى اعرفه عن ظهر قلب ، فانا لم اتعلم القراءة

فظهر السرور على وجه جبين الثور وقال :

ـ اذن خذ هذه الرسالة . وهاك ايضـــا خطابا الى فيليب جار السوء ، وتوسل اليه باسمى أن يوصل هذه الرسالة بسرعة الى مدينة يورك . وابلغه اننا سنثبت وراء اسوارنا ولن نستسلم لهؤلاء الاوباش ولكن يجب ان يسرع فى ارسال النجدة . والان مد يدك وخذ هــذه النفحة مكافأة لك . واياك ان تقصر فى اتمام مهمتك أو تخون ثقتى ، والا سلخت جلدك !

وخرج سيدريك من باب الحصن فأسرع الخطى ، حتى اذا ابتعد مسافة كافية للامان ، التفت ناحية النورماندى والقى بكيس النقود فى حركة ازدراء واضحة وصاح :

ــ الى الشيطان انت ونقودك !

ولم يفهم ، او لم يسمع النورماندى الكلام الذى قيل . بيد ان الحركة بدت له مريبة . وتهيأ لاصدار الامر الى رماته ان يطلقوا على الراهب سهامهم . ثم راجع نفسه فليس من الحكمة فى وقت الحصار تبديد الذخيرة فى غرض تافه كهذا

ودخل جبين الثور الى الحجرة التى فيها السجناء وصب لنفسه قدحا كبيرا من النبيذ ثم قال :

ــ والآن يا كلاب السكسون تكلموا . بكم تقدرون رءوسكم ؟ كم تدفع فدية لراسه سيد روذرود ؟

فأجاب وامبا بجسارة قائلا :

ــ لا ادفع درهما واحدا !

ثم اسقط بيده القانسوة والمعطف ، فصاح جبين الثور بالحراس :

ــ ما هذا الذى أتيتمونى به ايها الكلاب ؟

فقال براسى متعجبا :

ــ هذا وامبا مهرج سيدريك سيد روذرود . ومن المرجح أن يكون سيده الآن قد ابتعد متنكرا فى زى الراهب

فصاح جبين الثور فى غيظ .

ــ اذن كان سيدريك هــو الذى قابلته فى ثياب الراهب وقدته بنفسى الى باب الخروج ! ان احساسى لم يكذبنى . ولكن لا فائدة الآن فى الندم . ولنفكر فيما هو اهم واجدى . كم يدفع اثيلستان فدية لحياته وحريته ؟

فقال اثيلستان فى اباء وترفع :

ــ ادفع ثمنا لحريتى وحرية رفاقى الف مارك م الفضة

فقال جبين الثور على الفور :

ــ وانا قبلت . ولكن بشرط ان تتعهد باستخدام كل مافى وسعك لتخليصنا من هؤلاء الاوباش الذين يصرون على محاصرة املاكنا وقلعتنا

ــ سابذل كل مافى وسعى لذلك الغرض . وسيساعدنى بلا شك صديقى النبيل سيدريك

فاسرع بريان يقول :

ــ وانا موافق ولكن هذه الفدية لا تشــمل اليهودى اسحاق ولا ابنته

فقال جبين الثور :

ــ ولا الاميرة روينا

واقتيد الاسرى على الفور كى يتفرغ الجميع لاتخـاذ التدابير اللازمة للدفاع أمام هجمات المحاصرين . وكان بريان قائد فرسـان المعبد قد أدرك بخبرته العظيمة فى العمليات الحربية ، ان الاعـداء يستعدون لحصار القلعة على حسب أرقى اصول فن العسكرى . فاستنتج انهم يخضعون لاوامر قائد محنك حصيف

والواقع أن قامة الفارس الاسود الضخمة ، كانتظاهرة فى حركاتها بين الدروع الخضراء التى يرتديها سائر الجنود . ولم يجد جبـين الثور كبير عناء فى التعرف على ذلك الفارس الاسود الذى هزمه فى حلقة اشبى

وأدرك المحصورون أنه قد آن لهم ان يتفرقوا فى المواقف الدفاعية استعدادا للمعركة . وتم الاتفاق على ان يرابط براسى مع حفنة من الرجال فى الجهة الشرقية . وأن يرابط بريان مع حفنة اخــرى فى الجهة المقابلة له . وأن يتولى جبين الثور ورجاله الدفاع عن المدخل القائم امام المعبر

واتفق القواد الثلاثة على ان يذكوا حماسة رجالهم ويهتموا بتدبير الذخيرة ووسائل الدفاع ، بما فى ذلك قطع الحجارة للمنجنيق ، والزيت المغلى الذى يصب من الميازيب على المجازفين بتسلق الاسوار !

وبعد أن تمت جميع هذه الترتيبات اتجه كل من الفرسان الثلاثة الى موقعه المحدد ومعه النفر القــلائل من الرجال المخصصين له . وانتظروا فى هدوء وثبات وتصميم ذلك الهجوم الذى يتهدد القلعــة بين لحظة واخرى



الفصل الثالث والعشرون

الطبيبة

ولا شك أن القراء متشوقون لمعرفة كيفية وجود ولفريد ايفانهو مع اسحاق وابنته ربيكا ، بحيث وقع فى الاسر معهما فى قلعة توركيلستون ، تحت رحمة الد أعدائه

وجلية الأمر ان ربيكا كانت قد ناشدت والدها وهما فى حلقة اشبى ان يأمر بنقل الجريح الى المنزل الذى يقطنانه فى ضواحى اشبى . وهو بعينه البيت الذى كان اليهودى قد استقبل فيه جورث حينما ذهب موفدا من قبل ايفانهو . وكانت ربيكا قد تعلمت فن التمريض وعلاج الجرحى . ووصلت فى ذلك الفن الى مكانة رفيعة بين ابناء عشيرتها بفضل مهارتها العظيمة وعواطفها الرقيقة . وبفضل سر من أسرار التطبيب تلقنته عن جدتها وهى على فراش الموت . فلم يكن عجيبا أن تتكفل بشفاء الفارس الجريح . وكم من مرة كانت الاعشاب التى تعد منها المساحيق والادوية سببا فى شفاء مريض ميئوس من شفائه

وكان الامر فى هذه المرة يتعلق لديها بوفاء جزء من الدين الذى يطوق عنق والدها نحو ذلك الفارس . فعكفت على علاجه وهو مغمى عليه . وكم كانت دهشة ولفريد حين ثاب الى رشده أن يجد نفسه فى حجرة فاخرة ، يذكره ذوقها واثاثها بجو الشرق ، ولا سيما بلاد فلسطين التى كان يعرفها معرفة جيدة

وكى تتم صورة ذلك الذى تراءى له حلما غريبا ، ابصر فتاة أجنبية السحنة ولا شك ، ترفع ستارا من الحرير وتدخل ومن خلفها خادم نحاسى اللون ، فتقترب بغير تردد او استحياء من فراش الجريح

ولما هم ان يتكلم اسكتته باشارة من يدها . ثم فكت الضماده من فوق الجرح وفحصته بعناية . ولا ريب أن ذلك الفحص طمأنها ، لانها ابتسمت وأكدت له ان خطر المضاعفات قد تلاشى

ولم تخف عن المريض اصلها الاجنبى وسلالتها اليهودية ، واكدت له انه ما من طبيب فى انجلترا كلها يسعه ان يصنع ما صنعته له بنفسها . وعزت ذلك الشفاء السحرى الى بلسم عجيب هى التى تعرف سره دون سواها . ووعدت الجريح ان يعود الى الوقوف والسير على قدميه فى مدى ثمانية ايام اذا أخلد للهدوء والراحة . فقبل ولفريد ذلك الشرط بكل سرور . الى ان علم بالعقاب الذى انزله سيدريك بالعبد الأمين جورث ، فاراد القيام على الفور ليطلب من ابيه الصفح عن سائسه المخلص . ووجدت ربيكا عناء شديداً فى حمله على التريث والصبر

وفى اليوم التالى تبين لربيكا ان الحمى ذهبت آثارها . فقررت أن ولفريد يستطيع تحمل مشاق السفر فى محفة . واستأجر اسحاق عددا من الخدم لحمل المحفة وخدمة ثلاثتهم اثناء الرحلة . وقد علم القراء ما حدث لهم بعد ذلك فى الطريق

ولما وقع الجميع فى اسر براسى واتباعه ، أراد براسى أن يعرف شخصية ذلك الجريح الذى ينولى نقله اليهودى وابنته . فألقى نظرة على داخل المحفة . ولما عرف شخصية الفارس الشجاع ، كان من النبل بحيث كتم الامر عن رفاقه اكبارا لبطولة الفتى فى حلقة أشبى . ولما وصل الى القلعة امر الحراس بحمل المحفة فى رفق . واكد لجبين الثور ان المريض مشرف على الموت

وشغل جبين الثور عن الاهتمام بذلك الجريح أو تقصى حالته بنفسه . فعهد بالمحفة ومن بداخلها وبالحسناء ربيكا الى حراسة بعض رجاله ، فذهبوا بهما الى الطبقات العليا من القلعة . وتذكروا عندئذ أن امرأة عجوزا يجهلون اسمها تعيش فى قمة البرج الكبير ، معتكفة باختيارها عن كل نشاط أو اختلاط بالناس . وهكذا ندرك أنها بحكم اقامتها فى أعلى البرج ستتمكن من التلويح بالراية للمهاجمين فى الوقت المناسب كما اتفقت مع سيدريك

واستأنفت ربيكا بكل سرور مهمة تمريض جريحهـــا فى اخلاص

رائع . اما ولفريد فكان يشعر بقلق شديد على مصير ابيه ومصير حبيبته التي كان يعتبرها خطيبته . وكان يلعن مرضه ووهنه . وعجزه عن النهوض سريعا الى نجدتهما

ومن شواهد ما يدور حوله ادرك أن قوما يحاولون من خارج القلعة تخليصهم من الاسر . وان هجوما سيقع قريبا . ومعنى ذلك ان هذه المعركة القادمة ستقرر مصير احبائه. فناهيك بشعور الفارس الشاب وهو يرى نفسه ممنوعا من الاشتراك في تلك المعركة ، فاى عذاب هذا لشاب شجاع كريم النفس من طراز ولفريد ! فاخذ يئن ويتوجع قائلا :

ـ لو استطعت لزحفت الى هذه النافذة العالية لاطل منها !

فقالت الفتاة الرقيقة القلب :

ـ ان كان هذا هو كل ما تريد ياسيدى الفارس النبيل ، فانى استطيع ان اقوم بذلك العمل نيابة عنك . وساروى لك بلسانى ما سوف اراه بعينى

ـ ولكنك قد تقتلين . فان رماة السهام سيصوبون سهامهم الى كل فجوة ، والى كل راس تطل عليهم . فخذى هذه الدرع على الاقل وتسترى خلفها من السهام

وهكذا استطاعت ربيكا بناء على ارشادات ولفريد ان ترقب اطوار الحصار من غير ان تتعرض لخطر كبير . وشاهدت الاستعدادات القائمة للمعركة الوشيكة الوقوع

وكان كل شيء ملائما لها كي ترى اهم تلك الاستعدادات . فموقع النافذة العالى يتيح لهـا أن ترى أكبر جزء من القلعة . وان ترى الحصن الامامى عند المعبر ، وهو مدخل القلعة . وذلك في الواقع هو الموضع الحساس من مواضع المقاومة . فمن البديهى أن يتشبث به المحصورون . وان يبذل المهاجمون قصارى وسعهم للاستيلاء عليه

ولما القت ربيكا نظرها الى بعيد خيل لها ان الغابة تموج برماة السهام ذوى الدروع الخضراء . وابصرت فارسا طويل القامة يقود هؤلاء الرماة . وهذا الفارس دون سواه ـ كما قالت ولفريد ـ هو المدجج بالسلاح من فرعه الى قدمه . وفى يده قضيب من الحديد وفأس من فئوس الحرب . ولم تبصر قائدا غيره

وفجاة ترددت فى الفضاء ضجة هائلة . اختلطت فيها نغمات النفير مع صيحات الحرب التى أطلقها الجانبان

كان المهاجمون يصرخون :

ــ مار جرجس وانجلترا !

أما المدافعون فكانوا يصيحون :

ــ براسى وجبين الثور !

وبدا الالتحام . فانتشرت فى الجو سحابة من السهام مصوبة الى جميع المنافذ التى يمكن ان يختبىء وراءها احد من الاعداء . ورد المدافعون على ذلك بقذائف من المنجنيق تحمل حجارة . وارتجف صوت ولفريد فى لهفة المحارب الذى تثيره رائحة المعارك :

ــ انظرى يا ربيكا ماذا يصنع الفارس الاسود . فالقائد قدوة لجنوده

ــ انى اراه مع حفنة من رماة السهام يتجه الى الحصن الامامى مبـــاشرة . وها هو يزار مرحا كأنه ذاهب الى وليمة . وخوذته السوداء تعلو فوق مستوى المعركة كأنها عقاب فاحم اللون . وها هو قد استطاع مع رجاله أن يحدث ثغرة فى السور . لقد تحطم قضيب الحديد فى يده فهجم بالفاس ! ها هو يلتحم وجها لوجه مع جبين الثور . فقد عرفت جبين الثور بقامته الضخمة

وصمتت لحظة ثم صاحت :

ــ لقد سقط ! لقد سقط !

ــ من بحق السماء ؟ من الذى سقط ؟

ــ الفارس الاسود ! ولكن لا ! ها هو ينهض . لقد زلت قدمه وسرعان ما نهض . انه يواصل القتال وكان فى جسده قوة عشرين محاربا . ها هو يضرب بفاسه العملاق كما يضرب الحطاب الشجرة قد سقط ! لقد سقط !

ــ من ؟

ــ جبين الثـور . ولـكن هاهو بريان ومعـه آخـرون يخفون لنجدة زميلهم ويتكاثرون على الفـارس الاسود فيضطر للتراجع . ويحملون جبين الثور الى الداخل . ولكن تم استيلاء المهاجمين على الحصن الامامى . وها هو الفارس الاسود يتقدم حاملا فأسه الرهيبة ليحطم الباب . الا تسمع الضربات الهـائلة على البلوط السميك .

والقذائف تنهال عليه ؟ يالبطل الصامد ! انه لا يهتم بالقذائف وكأنها ندف من الريش أو حبات من القمح !

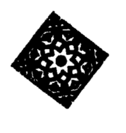
فتململ الجريح من فرط الحماسة فى فراشه وهتف :

ــ وايم الله ! أكاد اقسم انه لا يقدر على ذلك فى انجلترا كلها الا رجل واحد !

ــ لقد اقتحم الباب . وها هم المهـــاجمون يندفعون كالطوفان فيعبرون الخندق ويقيمون الســلالم على الاسوار ! انهم يقذفون الاعداء الجرحى الى الخندق بلا شفقة ولا رحمة ! لماذا لا يرحمون اخوانا لهم فى البشرية مجبرين على القتال ؟

ــ انت امرأة ياربيكا لا تفهمين معنى الحــرب والفروسية . أما نحن الفرسان فنعلى شرفنا وكرامتنا فوق الحيـــاة . ونسخر من التعب والخطر ، ونستخف بالموت ، ما دمنا ندافع عن قضية عادلة ، أو نحمى ضعيفا ، أو ننصف مظلوما . فان قيل فارس ، فقد قيل عدو لدود للظلم والطغيان والجور والاستبداد !

واستنفدت هـــذه الحمـــاسة فى الدفاع عن شرف الفروسية وأهدافها البقية الباقية من قوة الجريح المسكين ، وسرعان ما راح فى سبات من النوم ، تحت عين ربيكا الساهرة كأنها الملاك الحارس .



الفصل الرابع والعشرون

الشيطانة

ترتب على سقوط جبين الثور صريعا ارتياع واضطراب كان بمثابة هدنة قصيرة استغلها المهاجمون والمحصورون على السواء لترتيب امورهم . فالمدافعون انتهزوا الفرصة لتقوية وسائل الدفاع ، والمحافظة المستميتة على أهم المواقع فى الحصن . وأما المهاجمون فانتهزوا الفرصة لتثبيت اقدامهم فى اقرب المواقع الى القلعة وللالتفاف حول أسوارها

وكان الاستيلاء على الحصن الامامى للمدخل قد امد المهاجمين بافضلية عظيمة . اذ صار فى استطاعتهم ان يعبروا الخندق ذهابا وايابا كما يحلو لهم . ولكن تحت خطر التعرض لنيران السهام والمنجنيقات . الا ان هذا الخطر ليس شيئا مذكورا فى نظر رماة مهرة ومحاربين شجعان

وتبين بريان وبراسى صعوبة موقف المدافعين . فاجتمعا على الفور لمدارسة الموقف . وكان أول سؤال سأله براسى هو .

ــ أين جبين الثور ؟

فانه كان مرابطا فى جهة لا يرى منها القتال الدائر عند المدخل . فلم يعرف ماذا حدث لصاحب القلعة . فقال له قائد فرسان الهيكل :

ــ ان لم يكن جبين الثور قد اسلم حتى الآن روحه الجميلة الى الله أو الى الشيطان ، فهو قاب قوسين من ذلك او ادنى . لان عدوه وجه اليه بالفاس ضربة هائلة اخترقت حديد الخوذة وفلقت هامته

ــ ولكن كيف استطاع هؤلاء الرعاع ان يهاجموا الحصن من جهتك ؟

ـ هاجموه كالشياطين . ويخيل الي اني عرفت في قائد ذلك القطاع رامي السهام الذي فاز بالجائزة في حلقة آشبي . والذي تذكر ولا شك انه جابه الامير جان بكل وقاحة . فلولا انني كنت متحصنا بدرعي الاسبانية ، لاخترق جسدي هذا الوغد بسهامه . وما من حلة زرد على احد رجالنا الا ثلمها ذلك الرامي بسهامه الطويلة . فهل تريد يا صاح أن تعرف ما يجول بفكري ؟

ـ لهذا اجتمعنا فصارحني بما في نفسك !

ـ ان القضية التي ندافع عنها قضية خاسرة في حد ذاتها ، ولا امل فيما يبدو لي للصمود . والحصن الامامي المدخل سقط في يد العدو . وجبين الثور لم يعد مستطيعا ان يسندنا بقوته الهرقلية . فهاهم انصار الامير جان قد نقصوا واحدا . فالافضل فيما اعتقد ان نفاوض هؤلاء الرعاع ...

ـ كيف ؟ اتريد أن نفرط في اسرانا ونطلق سراحهم كي نصبح أضحوكة على السنة الناس ؟ هذا مستحيل وربي !

ـ حسبك ! انما هي فكرة خطرت لي ولا زيادة . فلنواصل القتال . وسترى أنني الفارس الذي لا ينكص على عقبيه في المعمعة

ـ الى الاسوار اذن يا صديقي !

□

وفي هذه الاثناء كان رب القلعة يحتضر على الفراش الذي وسدوه اياه ، يتلظى بلواعج العذاب من آلام جسمه وروحه على السواء ، وليس حول فراشه أحد من البشر . وافزعته هذه الوحدة الموحشة فجعل ينادي الخدم والعبيد ، فلا يلبي نداءه أحد . وابصر في سلسلة متعاقبة من الصور والرؤى ما اقترفه من جرائم وآثام لا محيص الآن ان يؤدي عنها حسابا عسيرا . فكيف تراه الآن يستطيع ان يمثل امام عرش العلي القدير المنتقم الجبار ، وهو الذي اغلق قلبه طيلة حياته امام كل بواعث الرحمة والشفقة ؟

ولكنه لم ييأس من رحمة الله ، فجعل يصرخ :

ـ كاهنا ! كاهنا ! أيريدون الآن ان اموت كما يموت الكلب ؟ !

وفجاة سمع صوتا اجشا يهمهم باسمه فصاح :

ـ من هناك ؟ من انت ؟ ان كنت حيا من الانس او شبحا فاقترب

حتى أراك !

فأجابه الصوت :

ــ انا شيطانك ! فكر فى خطــــاياك ياريجينالد ! فكر فى عصيانك وتمردك وجرائم الاغتصاب والقتل التى اقترفتها ! فكر فى أبيك الذى قتلته

ــ الى الوراء أيها الشيطان ! اخسأ ! لم يرنى احد ! لم يرنى أحد وانا اقتل ابى سوى شخص واحد . ولكن أولريك انتقلت منذ زمن بعيد الى حمى ابليس . ولن تفضحنى لانها كانت شريكتى فى الاثم !

ــ سواء كنت مذنبة او بريئة فانى اريد قبل أن اختفى واتلاشى من الوجود أن اتطهر من هذا الرجس . واعلم أنى اعيش منذ سنوات مديدة انتظارا لهذا اليوم ياريجينالد ، كى اراك انت الذى كانت يدك قادرة على تهشيم راس ثور ، وقد اصبحت أضعف من امرأة !

ــ اهو انت ايتها الخاسرة ؟ لقد حسبتك ميتة منــذ زمن بعيد ! ولكن ها انت ذى تظهرين فجأة لتسممى لحظاتى الاخيرة ! الى أيها الخدم والعبيد والقوا هذه الشيطانة بعيدا عنى !

ــ عبثا تنادى ايها البارون الشجاع المقدام الخدم والعبيد ! وعبثا تنتظر منهم الطاعة والعون ! فان ضجة المعركة تغطى على صوتك . وهذه الضجة هى النذير بتقويض بيتك . والسكسونى الذى عذبته وازهقت انفاسه قد بعث اليوم لينتقم منك ! . اترى ذلك الدخان الذى يملأ عليك الحجرة ؟ انا التى اشعلت النار لانى أردت ان تكون السنتها اعدادا ارضيا لك كى تتأهب لنيران الجحيم ! انا التى بيدى الواهنة اشعلت النار ! وبعد قليل لن يبقى حجر من قلعتك فوق حجر ! وليس لك الا عزاء واحد ، ان شريكتك فى الجــرم أولريك ستكون شريكتك فى العذاب والعقاب !

وخرجت اولريك على الاثر فتهاوى جبين الثور على الفراش يتلوى من الالم والبأس ، واخذ يصرخ كالثور المذبوح وقد أوشك أن يجن . ثم نشر الموت عليه جناحيه



الهجوم

أما المهاجمون فقد استفادوا من لحظة الهدوء التي أعقبت الاستيلاء على الحصن الامامي للمدخل فائدة اعظم من فائدة المدافعين. فبارشاد الفارس الاسود صنعوا قنطره متحركة ليلقوها فوق الخندق فى أى موضع يشاءون وفى اية لحظة

وكان الوقت الذى استغرقه صنع هذه القنطرة هو الفرصة التى أتيحت لاولريك كي تستخدم وسائلها الخاصة ، وعلى حسب الخطة التى افضت بها الى سيدريك

ومن جهـــة اخرى كان الفارس الاسود يريد ان يحسم الموقف بسرعة لانه لا يستطيع ان يمنح حلفاءه هؤلاء أكثر من يوم أو يومين من وقته الثمين . ولذا خاطب رجاله قائلا :

ـ استعدوا ايها الفتيان لالقاء القنطرة بمجرد صدور الاشارة . ثم اعبروها من خلفى كى نقتحم البـاب المقـابل من ابواب القلعة . وليحرص زملاؤكم على قذف السهام باحكام فى وجه كل جندى يظهر فوق الاسوار . والآن من منكم يتبعنى فى الهجوم ؟

فصاح سيدريك :

ـ لن يسبقنى احد فى هذا المضمار ! وسيرى الناس اليوم أن السكسونى الحق لا يخشى خوض المعـركة مكشوف الراس عارى الصدر !

واختار الفارس الاسود موقعا معينا ثم أمر بالقاء القنطرة

وكالسهم المارق اجتازها الفارس الاسود ، ومن ورائه سيدريك ، فوصلا الى الضفة الاخرى . وبفأسه انهال على الباب المصنوع من خشب البلوط . ولما برز اثنان من الرماة فوق الاسوار ؛ قتلهما رماة

المهاجمين على الفور

ولما رأى موريس دى براسى تخاذل الجميع أمام شجاعة الفارسين النبيلين ، صاح بجنوده :

ـ ما هذا الهوان ؟ اتسمحون لفردين أن يقتحما عليكم حصنكم الحصين وانتم سكوت كأنكم نسوة لا حول لهن ولا طول ؟ عيشوا كراما أو موتوا رجالا ! هيا اهدموا جزءا من السور والقوا بحجارته الضخمة على المهاجمين !

وفى هـذه اللحظة لمح لوكسلى السنة النيران تتصاعد من القلعة فصاح برجاله :

ـ قلعة توركيلستون لنا بعد هجمة صادقة واحدة . ولكن كيف تسمحون لانفسكم ان يقوم هذان النبيلان عنكم بعبء اقتحام القلعة وحدهما ؟ اترون هذه الراية التى تخفق فوق البرج ؟ انها العلامة المتفق عليها . فالى الهجوم !

ولمح وهو يتكلم جنديا يهم بهدم قمـة السور . فرشقه بسهم ارداه . فتلاه تان لم يكن مصيره خيرا من مصير الاول . وجاء ثالث ورابع فلقيا مصرعهما بسهمين مصميين . فلم يجسر احد بعد ذلك أن يتعرض لرميات ذلك الرامى الذى لا يخيب ! فلما رأى براسى حرج الموقف صاح :

ـ خسئتكم أيها الجبناء ! اعطونى المعول والرافعة !

وتصدى هو لهدم الحجر والقائه . ورماه لوكسلى بثلاثة سهام تحطمت كلها على زرد ذلك النورماندى الذى لا يثقب . وصـــاح لوكسلى :

ـ لعن الله هذا الزرد الاسبانى ! فلو كان صـــناعة انجليزية لاخترقته سـهامى ! أيها الفارس الشجاع ! أيها النبيل سيدريك ! احذرا من سقوط الحجر على رأسيكما !

وكاد براسى ان يتمكن من القاء الحجر الضخم ، واذا بريـان يظهر فجأة ويهتف به يائسا :

ـ لقد ضاع كل شىء يا براسى . ان القلعة طعمة للنيران !

ـ امجنون انت ؟

ـ لقد اندلعت النيران فى البناء الغـــربى وذهبت جميع الجهود

لاطفائها سدى . فاسمع نصيحتي وانزل مع رجالك وافتح الباب واخرج . فلن تجد سوى رجلين عند الباب . الق بهما انت ورجالك في الخندق . اعبر القنطرة وسأتبعك الى هناك . فليس لنا اليوم الا سيوفنا !

ـ وهو كذلك ! هذه خطة معقولة

وجمع براسي رجاله وفتح الباب فجأة . ولكن الفارس الاسود وسيدريك كانا أسبق منه بالاقتحام . وقتلا أول رجلين وجداهما . فتراجع الباقون غير معيرين التفاتا صيحات قائدهم ، فصاح :

ـ ايها الانذال ! هما اثنان وانتم كثرة فكيف تخافونهما ؟افسحوا لي طريقا فاني اريد ان أبارز هذا الشيطان !

واظهر براسي في تلك المبارزة الفردية بساله ومهارة عظيمتين . بيد أن خصمه كان أقوى منه ، وسرعان ما تلقى ضربه على أم رأسه فوقع على الارض . فقال خصمه له وقد وضع سن خنجره على عنقه :

ـ استسلم يا براسي . سلم نفسك وكن تحت رحمتي والا هلكت !

فقال قائد الحرس بصوت اجش :

ـ انى لا استسلم لشخص مجهول

فمال الفارس الاسود فوق المهزوم وهمس في اذنه بضع كلمات لم يسمعها سوى براسي ، وعندئذ قال :

ـ ليكن . انى اسيرك . ولكنى أعلم أن ولفريد ايفانهو جريح في الحصن وسيهلك محترقا بالسنة النيران ان لم تنقذوه

فرفع الفارس الاسود خنجره عن عنقه وصاح به :

ـ ولفريد في خطر ؟ ان حدث له أى مكروه دفع جميع رفاقك ارواحهم ثمنا لحياته ! أما انت فاذهب وانتظر اوامرى

فنهض موريس دى براسي واخذ سلاحه ، ثم خلع خوذته علامة الاذعان والخضوع ، واتجه الى الحصن الامامى الذى في يد المهاجمين حيث سلم للوكسلى أسلحته . ولما رآه جنوده يستسلم حذوا حذوه

□

وكانت السنة الحريق تفعل فعلها في القلعة وسرعان ما وصلت

طلائعها الى الحجرة التى يرقد فيها ولفريد تحت رعاية ربيـــكا . فصاحت :

ـ النار النار ! القلعة تحترق ! كيف النجاة ؟

فصاح ايفانهو :

ـ اهربى يا ربيكا ! فكرى فى حياتك !

ـ لن أهرب وحدى . ولكن رباه ! ماذا يكون مصير ابى ؟ وفى هذه اللحظة انفتح الباب وظهر بريان قائد فرسان الهيكل :

ـ لقد تخطيت جميع الحوائل كى اصل الى هنا . هيا اتبعينى !

فامتنعت عليه ربيكا ورفضت ان تتخلى عن ابيها الشيخ وفارسها الجريح . فقبض عليها بريان عنوة وحملها الى خارج الحجرة عنوة . وولفريد يتلوى من الغيظ ساخطا على عجزه أمام ذلك العـــدوان الآثم . وراح يصرخ صابا اللعنات على ذلك الوغد . واذا بالبـــاب يفتح عنوة ويدخل عليه الفارس الاسود صائحا بصوت كالرعد :

ـ لولا صراخك يا ولفريد ما عرفت أين انت !

ـ ان كنت فارسا شهما حقا فانقذ الاميرة روينا وانقذ سيدريك وطارد ذلك الفارس الوغد الذى هرب بربيكا

ـ سيحين دور هؤلاء . ولكن لنبدأ بك اولا

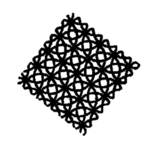
وحمل الفارس الاسود ولفريد فى يسر واندفع به الى خــارج القلعة حيث سلمه الى اثنين من رماة السهام ، وعاد مسرعا يخترق قاعات القلعة ليتم عمليات الانقاذ

أما وامبا فانتهز فرصة الفوضى التى سببها الحريق ليضـــلل حراسه ويهرب من السجن هو وأثيلستان . وجعل يصيح بأعلى صوته حتى تنبه سيدريك الى موضعه وخلصهما معا

وحينما اجتاز اثيلستان الفناء الخلفى للقلعة أبصر بريان يمتطى جوادا ويضع أمامه أسيرته . فظن اثيلستان ان هذه الاســـيرة خطيبته الاميرة روينا . فحمل عمودا من الحديد وجده ملـــقى على الارض وهجم على بريان . ولكن فارس الهيكل كان أسرع منه فضربه على ام راسه ضربة صرعته وانطلق بأسيرته

وبعد قليل سيطرت النيران على ارجاء القلعة . وهجرها كل من

.فيها مستسلما للمنتصرين . وعندئذ تراءت فوق قمة البرج الكبير
امرأة عجوز مشعثة الشعر مهلهلة الثياب تتغنى باغنية سكسونية
عتيقة . وتحت أنظار الرجال المبهوتين التهمتها السنة النيران



الغنائم

التقى جميع المحاربين الذين كان لهم دور صغير او كبير في الاحداث الاخيرة تحت قيادة الفارس الاسود ولوكسلي ؛ وكان مكان اللقاء تحت شجرة البلوط الكبيرة التي يبدو انها مقر قيادتهم ، فمنها كان قيامهم في مهمتهم المحفوفة بالاخطار

فبعد ان خفتت آخر الامر ضجة المعركة وما اقترن بها من قلق وفزع وتوجس ، استولت على نفوس هؤلاء المحاربين الشجعان بهجة النصر ، لا سيما ان غنائم كثيرة وقعت في ايدي المنتصرين

واما سيدريك فافعمت نفسه بامتنان نحو عبديه المخلصين وامبا وجورث ، فانتهز هذه الفرصة واعلن على رءوس الاشهاد عتقهما ؛ ونزع من عنقيهما السلسلتين النحاسيتين اللتين تحملان دليل رقهما الموروث ، فامسيا رجلين كاملي الاهلية بين عداد الاحرار

وكان المتطلع في تلك اللحظة الى سحنة راعي الخنازير الجلف جورث ، وقد اشرق محياه وومضت بالسرور المفرط عيناه ، يدرك على الفور أن اعز اماني ذلك الرجل من دنياه قد تحققت في تلك اللحظة بحصوله على حريته

واما المهرج وامبا فتقبل ذلك التغير في مصيره تقبلا فلسفيا هادئا بل ساخرا ، وكأنه يرى الانسان عبدا في جميع حالاته ، ان لم يكن لغيره من الناس : فلشهواته ورغائب ذاته !

واما لوكسلي فانصرف اهتمامه الى توزيع الغنائم على رجاله ، وكانت سيطرته الادبية على اولئك الاجلاف ذوي الفظاظة مثار الاعجاب حقا ، فهم بغير تفريق يتقبلون احكامه بكل احترام ، وبغير تردد او مناقشة

وغنى عن البيان انه عرض على سيدريك وعلى الفارس الاسود نصيبهما الحق فى الغنائم . بيد ان كلهما رفض قبول شيء منها وتنازل عن حقه لبقيه الرجال . فان سيدريك بما يملكه من ثروة طائلة كان فوق ذلك المستوى . وكان يرى جزاءه الاوفى فى اجتماع شمله مع سائر من يحبهم قلبه . ولم يكن يكدر صفوه فى تلك اللحظة الا ما منى به معسكر الوطنيين السكسون من خسارة فادحة فى شخص النبيل اثيلستان المرشح للعرش

اما الفارس الاسود فاكتفى من جميع الغنائم بأن تكون له حرية التصرف المطلقة فى شخص موريس دى براسى قائد حرس الامير جان الوصى على العرش . وظن الجميع انه سيقتله او يطلب منه فدية ضخمة . ولكنه اخلى به برهة وكلفه بمهمة معينة غامضة لدى اولئك الذين يمثلون وقتئذ حكومة انجلترا ، ثم اردف ذلك بقوله :

ــ ولا اريد يا براسى ان استغل الظروف لاقوم بانتقام صغير ، لذا اطلق سراحك بغير فدية ، ولكن اوصيك بالحذر مستقبلا !

ولما كان سيدريك يشعر بعظيم التقدير للخدمات الجليلة التى اداها الفارس الاسود لقضيتهم ، فقد دعاه للذهاب الى داره فى روذرود حيث يتاهب للعودة هو والاميرة روينا

وكانت الاميرة من جهتها قد اطمأنت على مصير والفريد . ولعلها لم تشعر بكبير اسى لفقدان خطيبها الرسمى اثيلستان . ومع انها لم تظهر شيئا مما يجيش فى صدرها ، الا انها استبشرت بزوال آخر عقبة كانت تحول بينها وبين تحقيق امانيها الخفية

وضمت الاميرة روينا صوتها الى صوت سيدريك فى رجاء الفارس الاسود ان يذهب معهما الى روذرود . وقال سيدريك :

ــ ثق انك ستستقبل هناك استقبال الابن او الشقيق !

فقال الفارس الاسود فى رقة ملحوظة :

ــ شكرا لك ايها النبيل سيدريك على دعوتك الرقيقة . ولكن امورا هامة عاجلة تحول بينى وبين قبولها فى الوقت الحاضر . ولكن ثق اننى سأذهب لزيارتك هناك فيما بعد . وعندما يحين وقت تلك الزيارة ، سيكون ذهابى ابذانا بطلب خدمة خاصة منك

فصاح سيدريك فى حماسة وهو يمد يده الى الفارس الصنديد :
ـ طلبك مقبول مقدما
فابتسم الفارس الاسود وقال :
ـ ساسمح لنفسى ان اذكرك بهذا الوعد عندما يحين الاوان
وبعد ذلك ابتعد سيدريك مع جميع أفراد حاشيته متجهين فى طريق روذرود .
ولكن لوكسلى لم يكن يخلو من قلق شديد على مصير الناسك . فهو يعلم حبه المفرط للخمر . ويخشى ان يكون قد تباطأ أكثر مما ينبغى فى قبو أنبذة جبين الثور المختارة ، الى ان انهار عليه البناء بفعل الحريق . فقال لوكسلى لرجاله :
ـ اننى مستعد للتخلى عن نصيبى فى الغنيمة كاملا فى سبيل استرداد هذا الزميل الشهم والمحارب المغوار . فاذهب ايها الطحان مع ستة من زملائك وفتشوا بين أنقاض القلعة حجرا حجرا
ثم التفت الى الفارس الاسود الذى كان يرقب ما يجرى وهو صامت . والحق أنه كان متعجبا من التنظيم الرائع الذى يسود هؤلاء العصاة ، وقال :
ـ ايها السيد الفارس . لقد آزرتنا فى هذه المحنة بقوة ساعدك ومشورتك وخبرتك الثمينة . ولما كنت تأبى ان تنال شيئا لقاء ذلك كله من حقوقك الطبيعية ، فأرجو ان تتقبل منى على الاقل هذه الهدية
ثم خلع بوق الصيد الذى ناله يوم حلقة اشبى وقربه من شفتيه، ثم نفخ فيه ثلاث نفخات وقال :
ـ اذا حدث ان وقعت فى مأزق أو خطر ، وذلك أمر قد يحدث لاى رجل شجاع ؛ فانفخ فى هذا البوق ، وسترانى أسرع اليك بشخصى ، أو يسرع اليك أحد رجالنا
ثم التفت الى رجاله وقال :
ـ هل فهمتم ووعيتم هذا الكلام ؟
فصاح الجميع بصوت قاصف كالرعد :
ـ فليحى الزعيم ! ليحى الفارس الاسود ! فليحى الصنديد المغوار

وبعد ذلك عاد لوكسلى الى انشغاله بأمر الناسك المفقود . وكان الفارس الاسود يشاركه قلقه . لانه كان يحتفظ فى قلبه بمكانة طيبة لذلك الراهب المحارب الظريف الذى قضى معه أطيب الاوقات فى صومعته

وفجاة سمع من بعيد صوت هادر ينبىء بوصول المفقود . ثم ظهر الناسك بجثته الضخمة وهو يصيح :

ـ افسحوا الطريق أيها الفتيان ! افسحوا لابيكم الروحى واسيره! فهأنا أصل اليكم كالنسر الذى يهبط الىوكره وفريسته بينمخالبه

وراح يدفع رفاقه الذين انفجروا فى عاصفة من الضحك ، هو يجر باحدى يديه حبلا طويلا ملفوفا حول رقبة اليهودى اسحاق . وكان المسكين فى فزع هائل . فصاح لوكسلى :

ـ ما هذا الذى اتيتنا به ؟

ـ اسير اسرته برمحى وسيفى ايها الزعيم ! تكلم ايهـــا اليهودى الملعون ! الم انقذك من اسر افظع من نار جهنم ؟ الم اعلمك اصـــول ديانتنا الشريفة ؟ الم يجف ريقى فى تعليمك حتى كدت أموت ظمأ لولا زجاجات النبيذ التى كنسها الملعون جبين الثور فى كهفه ؟

فاتجه اسحاق المسكين الى لوكسلى قائلا :

ـ لقد ظل يا سيدى يعلمنى كلاما غريبا طول الليـــل ونحن فى الزنزانة . فلم أفقه منه شيئا !

فصاح الناسك :

ـ عجبا ! الم انتزع منك وعدا معززا باليمين المغلظة ان تتنازل لجماعتنا عن جميع اموالك ؟

ـ اقسم بأبينا أبراهام أن وعدا كهذا لم يخرج من بين شفتى !

فصرخ الناسك قائلا :

ـ اترجع فى وعدك ! يجب ان تكفر عن هذه الخطيئة !

ورفع يده بهراوته الضخمة لينقض بها على كتفى المسكين . ولكن الهراوة انتزعت من يده ، فصرخ الناسك :

ـ هل عدت مرة اخرى الى التدخل فى شئونى ايها الفـــارس الخائب ؟

هل نسيت سريعا افضالى عليك ؟ لقد تجاوزت فى هذه المرة كل

حـد !

وضم قبضتيه الهائلتين ، فرجره لوكسلى قائلا :

ــ ماذا جرى لك ؟ أتريد ان تتشاجر ؟

فقال الفارس الاسود بكل هدوء :

ــ لا مشاجرة . انه مجرد تصفية موقف بالطريق الودى . هيـا ايها الراهب اضرب ان تجاسرت . سأتلقى ضربتك بشرط انتتلقى منى ضربة مماثلة . وسأخلع قفازى لكون على قدم المساواة !

فشمر الناسك كمه الى ما فوق مرفقه فظهرت عضلاته بارزة. وتراجع الى الوراء قليـلا ثم لكم خصمه على صدغه لكمـة هائلة تكفى كى تصرع ثورا . بيد ان الفارس ظل ثابتا كالصخرةولم يتململ ولم يصدق الحاضرون أعينهم . لان قبضـة يد الراهب كانت مشهورة تضرب بها الامثال

وبعد برهة قال الفارس بكل فتور :

ــ والآن حل دورى !

فقال الراهب :

ــ ان تراجعت قيد شعرة تحت لكمتك ، ففدية اليهودى خالصة لك

ولم يمهله الفارس الاسود بعدها فوجه ضربته باحكام شديد وقوة عارمة ، فتدحرج الراهب العملاق على الارض ، وصاح رفاقه ارتياعا ودهشة . بيد ان المهزوم لم يظهر حقدا ولا غيظا ، بل انحنى أمـام قوة تفوق قوته ، وقال كالمداعب :

ــ كان فى وسع السيد الفارس ان يترفق فى ضربته قليلا !

والتفت لوكسلى الى اليهودى ليقول له انه قد آن الاوان ليفكر فى تدبير فديته . ثم التفت الى رفاقه ليتفق معهم على مبلغ الفدية ،ولكن أسيرا جديدا رفيع المكانة جىء به فى تلك اللحظة فشغل لوكسلى عن فدية اليهودى اسحاق

ولم يكن ذلك الاسير الرفيع المقام سوى صديقنا القديم أسقف أمر النورماندى ، رفيق بريان فى الرحلة الى حلقة أشبى

الفصل السابع والعشرون

الفدية

وشرع اسقف ايمر يشكو فى عبارات عنيفة ، من المعاملة المهينة التى عومل بها ، وهو امير من أمراء الكنيسة المقدسة . فان آسريه خاشنوه بعنف ، وأجبروه على تسليم كل ما فى حوزته من المـــال والنفائس

وتلقى لوكسلى الشكوى بهدوء تام . والحق أنه كان مستمتعا فى اعماقه بما يبديه الاسقف من استنكار وغيظ . وكان كل تعليقه فى النهاية :

ـ ان الخارجين على القانون لهم قانونهم الخاص . ولا حيلة فى النزول على مطالبهم ، ولا يستثنى من ذلك البابا نفسه

ولم يجد اسقف ايمر من اللائق بكرامته ان يساوم حثالة من قطاع الطرق فى مقدار فديته ، فقال بإباء :

ـ انى أترك لك تحديد مبلغ الفدية

فقال لوكسلى بخبث :

ـ لابد لى من معلومات عن ثروتك !

ثم التفت الى اليهودى وقال :

ـ انك لاشك تعرف يا اسحاق قداسة الاسقف ، الا تعتقد أننا نستطيع ان نحصل منه على مبلغ ستمائة جنيه ذهبا ؟

فبادر اسحاق يقول :

ـ طبعا طبعا . ليس فى هذا شك . فانى اشترى من ديره كل سنة كميات هائلة من القمح والشعير والتبن ، واوقاف الـــدير واسعة متعددة ، ولن يبهظه دفع الستمائة جنيه !

فالتفت لوكسلى للاسقف وقال :

ـ لقد صدر القرار يا صاحب النيافة . وحددنا فديتكم بستمائة جنيه

فقال الاسقف باباء وهو يتحاشى كل جدل :

ـ وما الطريقة لتسليمكم هذا المبلغ ؟

فانتهز اسحاق هذه الفرصة للتقرب الى اسريه وقال :

ـ انى استطيع ان ابعث الى مدينة يورك بورقة فيتسلم الرسول الستمائة جنيه ، بشرط ان يعطينى نيافة الاسقف تحويلا بهذا المبلغ نخصمه من المبالغ المستحقة له فى ذمتى ثمنا للغلال

فقال لوكسلى على الفور :

ـ كلام طيب استحضر لنا من يورك فدية الاسقف مع فديتك

فصرخ اسحاق وهو يلطم خديه :

ـ فديتى انا ؟ ولكنى رجل مسكين مفلس

فابتسم اوكسلى والتفت الى نيافة الاسقف قائلا :

ـ لنحتكم فى هذا الى نيافة الاسقف

ـ رأيى ان هؤلاء المرابين يمتصون أموال الناس بالحرام فى الوقت الذى يقاسى فيه المؤمنون عذاب الحاجة !

ـ ان حكمنا نهائى يا اسحاق . وقد باركه نيافة الاسقف

ـ أى يوم اسود هذا ؟! لقد فقدت فيه ابنتى الوحيدة واموالى

فقال أحد أفراد العصـــابة على الفور .

ـ اليس لابنتك شعر أسود ووشاح مطرز بخيوط الفضة ؟

فصاح اليهودى وهو لا يملك نفســه من اللهفة :

ـ نعم نعم ! حلت عليك بركة يعقوب ! أتعلم عن مصيرها شيئا !

لقد رأيت بريان فارس الهيكل يحملها أمامه على جواد بعد ان شق لنفســه طريقا بين صفوفنا . ويظهر ان وجهته حصن تملستاو . والحقيقة انى لم أجرؤ على رميه بسهم ، خشية أن أجرح الفتاة

وكان حزن الوالد الشيخ فاجعا حتى ان لوكسلى اخذته الشفقة عليه وقال له :

ـ اسمع يا اسحاق . قل لى بصراحة . ألن يبقى لك شىء مطلقا بعد دفع فديتك الينا ؟

فقال اسحاق بعد تردد انه سيتبقى له شىء قليل جدا . فقال له

لوكسلي على الفور .

ــ حسبك ! وستكون بحاجة الى مال كثير كي تتمكن من مفاوضة بريان في فدية ابنتك . فهو ليس بالرجل الذي يعمل شيئا لوجه الله . ثم ان المزاج قد استمر وقتا كافيا . وآن لك ان تعلم انه لم يكن في نيتي منذ البداية ان اتقاضى من أحدكما شيئا . فادا صدقنا اسحاق . وكان الدير كثير الموارد فأنا أعلم ان هذه الموارد تنفق على الفقراء ، بغير تفريق بين الاجناس والاديان . ثم من الخساسة بعد انتصارنا على عدونا والاستيلاء على القلعة الا نفرج عن الاسرى الذين كانوا فيها . ولكن في نيتي ان اطلب من نيافة الاسقف خدمة اعتقد أن دينه سيحفزه الى قضائها

ــ وما هي ؟

ــ ان نيافة الاسقف يتمتع بنفوذ عظيم لدى جماعة الهيكليين . فأريد منه ان يسخر ذلك النفوذ في اطلاق سراح ابنة اسحاق من بين يدي زعيمهم بريان !

وما ان سمع اسحاق هذا الكــــلام حتى ارتمى على الارض تحت قدمي لوكسلي واراد أن يقبلهما . فصاح لوكسلي بشيء من الازدراء :

ــ قم يا رجل ! فلا يجــوز الركوع الا امام الله . ولا تظن انك خدعتني . فأنا أعرف أين تضع خزائنك . وأعرف ان في حديقــة بيتك بمدينة يورك سردابا يؤدي الى كهف تحت الارض !

ــ حلت عليك بركة يعقوب ! لا تبح بالسر لاحد !

ــ لن ابوح بالسر لاحد . ولكن يجب ان تدفع تكاليف ترميم كنيسة الدير في مقابل توسط الاسقف في اطلاق سراح ابنتك !

وبعد مفاوضات قصيرة تم الاتفاق على المبلغ . وقرر الاسقف أن يكتب خطابا الى مقر قيادة الهيكليين . واسرع اســحاق يخرج الدواة التي لا تفارقه في تحركاته . ولكن اتضح ان الريشة سقطت . وظهرت خيبة الامل على وجه اليهودي ، فقال لوكسلي :

ــ اتريد ريشة جديدة ؟

ــ حلت عليك بركة يعقوب !

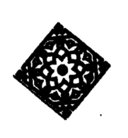
فنظر لوكسلي الى السماء ورأى سربا من الاوز البري يخترق الجو من الغرب الى الشرق . فرفع قوسه ورمى أوزة كبيرة فسقطت تحت

اقدامهم ، فقال لوكسلى باسما :

ـ هاك يا سيدى الاسقف ريشات تكفيك عدة اشهر !

وشرع الاسقف يكتب الى الرئيس العام لجماعة الهيكليين خطابا حارا ، ثم أعطاه لاسحق كى يذهب بنفسه لاسترداد ابنته

وكان الفارس الاسود يرقب باهتمام شديد جميع ما حدث ، فلم يملك نفسه من الاعجاب بشهامة لوكسلى ، وبسيطرته التامة على أولئك الافاقين الذين تعودوا الخروج على العرف والقانون وأعرب الفارس الاسود للوكسلى ولرجاله عن اعجابه الشديد بهم . وتلقى على تلك التحية شكرهم على صورة هتاف بحياته . ثم ركب جواده واتجه نحو الشمال ، مخترقا الغابة .



الفصل الثامن والعشرون

الكمين

وكانت وجهة الفارس الاسود هى دير من اشهر ديور تلك الفترة ، بالقرب من المكان الذى انشئت فيه فيما بعد مدينة بوسطن . وكان الفارس الاسود قد وجه الى هناك ولفريد ايفانهو فى رعاية وحراسة وامبا وجورث ، اللذين اصبحا من الاحرار كما علمنا

وكانت أنباء حلقة أشبى وما جرى فيها قد وصلت الى ذلك الركن المنعزل من البلاد وكذلك موقعة توركيلستون وما جرى فيها ،فعلم الناس نبأ مصرع جبين الثور ، ونبأ اسر موريس دى براسى على يد الفارس الاسود . ثم نبأ المهمة الغامضة التى كلفه بها قاهره لدى الامير الوصى على العرش جان

ويظهر أن هـذه المهمة الغامضة التى قام بها براسى قد أثارت اضطرابا جنونيا بين اخصاء الامير جان . ونشبت فيما بينهم مناقشات عنيفة وصلت اصداؤها على السنة الناس الى جدران ذلك الدير المنعزل

وجميع تلك الشائعات والاخبار كانت موضع الاهتمام العظيم من الفارس الاسود عندما تلقاها من فم ولفريد ايفانهو نفسه . فان ولفريد كان فى صحة جيدة يتماثل للشفاء بتأثير المراهم السحرية التى استخدمتها فى علاجه اليهودية الحسناء ربيكا

وفى صباح اليوم التالى لم يشأ الفارس الاسود ان يضيع مزيدا من وقته فصمم على متابعة سيره نحو الشمال ، وقال لايفانهو :

ـ سنلتقى أيها العزيز فى قصر اثيلستان المسمى بيت الملك . لان سيدريك لابد أن يتصدر هناك مراسم المأتم الذى سيقام لقرينـه النبيل . واحب ياعزيزى ولفريد ان ارى فى هذه الفرصة هناك

اصدقاءك السكسون كى اوثق معرفتى بهم . ولهذا اريد ان تلحق بى هناك . وانا الكفيل باتمام الصلح بينك وبين ابيك

ورفض رفضا قاطعا ان يصحبه ولفريد فى رحلته هذه . مع ان ولفريد الح فى ذلك الحاحا شديدا للغاية . واوصاه ان يخلد للراحة يوما آخر على الاقل . واكتفىالفارس الاسود بصحبة وامبا لما اعجبه فيه من مرحه ودعاباته

وادهش عبدى سيدريك السابقين ان ولفريد تناول عند الوداع اليد التى مدها اليه الفارس الاسود ولثمها بحرارة . وان الفارس الاسود لم يجذب يده . وظل ولفريد يتبع الفارس الاسود بنظره الى أن اختفى هو ووامبا فى الغابة

وتقتضينا الامانة ان نقول ان ولفريد نسى بسرعة فائقة وعوده للفارس الاسود ان يستريح . فقد اقلقه ان يراه وحيدا . وكان يتوقع أن يعمد اتباع جبين الثور الى الانتقام منه . وابى ولفريد ان يصغى لتوسلات رئيس الدير فامتطى صهوة جواده يتبعه جورث . وسارا فى آثار الفارس الاسود

اما الفارس الاسود فشجعه مزاح وامبا وفكاهاته على السير السريع فى الصباح الباكر ، واعجبه النسيم العليل فخلع خوذته وكشف لعينى مرافقه عن وجه وسيم وعينين تومضان ببريق العزيمة . ووامبا المسكين لايدرى اى شرف اتيح له

وجعل الفارس يملأ صدره العريض بالهواء المنعش ويتغنى بقصيدة من القصائد الشائعة المرحة ، وتابعه يردد معه قرارها وهو يباريه فى الطلب والاقبال على الحياة

وخطر لوامبا ان رجال السوء المسلحين ربما تعرضوا لهم متحرشين بهم . وكان يخشى هؤلاء خشية تفوق خوفه من العصاة وقطاع الطرق الذين تغص بهم مقاطعات الشمال . فقال للفارس الاسود :

ــ قل لى بربك ياسيدى الفارس . ماذا نصنع لو برز لنا اثنان من هؤلاء الاشرار فجاة ؟

ــ أسمرهما فى الارض بضربة من رمحى اذا خطر لهما ان يعترضا طريقنا . اعدك بهذا !

ــ وان كانوا اربعة ؟

ـ هذا العلاج نفسه يكفى لأربعة

ـ ولنفرض أن ستة منهم تعرضوا لنا . ولسنا سوى اثنين . الا تلجأ عندئذ الى بوق لوكسلى ؟

فقال الفارس بلهجة تجمع بين الغضب والاستهزاء :

ـ يا للعار ! انادى طالبا النجدة والغوث بسبب عشرين من هؤلاء الحثالة ؟ ان الفارس الهمام ينبغى ان يسوق هؤلاء امامه كما تسوق الرياح اوراق الاشجار الجافة

فحملق وامبا متعجبا ثم قال :

ـ اتسمح لى ياسيدى ان أرى هذا البوق ؟

فخلع الفارس البوق من عنقه واعطاه لوامبا . فعلقه وامبــا فى رقبته ، ثم نفخ فيه النغمات الثلاث ، وقال بعد ذلك بسذاجة :

ـ هاأنت ترى ياسيدى الفارس انى أعرف النغمات كما تعرفها انت !

فصاح الفارس الاسود مغيظا :

ـ مامعنى هذا العبث ؟ اعطنى البوق !!

ـ على رسلك ياسيدى الفارس ! انه فى ايد امينة فلاتخف . وانا ساحسن استعماله افضل منك . لان جبنى سيجعلنى لا اتردد أو اخجل

ولم يكن الصبر على المعارضة من مزايا الفارس الاسود فصاح :

ـ لقد تجاوزت كل حد أيها الوغد

ـ لا لزوم للتهديد من فضلك . والا تركتك تسير فى الغابة وحدك فتكون الجانى على نفسك !

فكان ذلك كافيا لاضحاك الفارس ، وقال :

ـ لقد أخفتنى . احتفظ بالبوق ولنسر فى طريقنا

ـ أتعدنى بشرفك اذا اقتربت منك الا تمسنى بسوء ؟

ـ أعدك بشرفى

ـ اذن سأكافئك على ذلك مكافأة جزيلة . اعلم ايهــا الفارس الهمام ان هناك كمينا منصوبا لك على مسافة قريبة بين الاشجار . وقد رايت انعكاس الشمس على عدد من الخوذات الحديدية .

ـ انها فعلا مكافأة عظيمة لن انساها لك !

واسرع الفارس يحكم وضع خوذته ولثامه الحديدى على وجهه . وجاءت تلك الحيطة فى اوانها بالضبط لان ثلاثة سهام انصبت فى وقت واحد على رأســه وصدره . ولو تأخر قليلا فى لبس خوذته لاصابه السهم فى دماغه

وصاح الفارس الاسود بأعلى صوته :

ـ هيا ياوامبا نهجم على هؤلاء الاوغاد !

وفى اللحظة التالية هجم سبعة رجال مسلحين فى وقت واحد على الفارس الاسود . فتحطمت اسلحتهم على دروعه وكأنها أسوار من الفولاذ

وانتصب الفارس الاسود واقفا فى ركابه ، وعيناه تقدحان شررا . وجعل يضرب بسيفه فتطيح كل ضربة منه برجل . وتراجع الباقون بعيدا عن ذلك الســيف الذى يورد موارد الحتوف

واوشكت الشجاعة أن تغلب الكثرة الغاشمة ، لولا أن فارسا عليه درع زرقاء ظهر فى تلك اللحظة وهجم عليه . وبدلا من أن يوجه ضربته الى الفارس طعن بالرمح جواده الاصــيل ، فصرع الفارس الاسود الذى سقط مع دابته على الارض

ـ هذه خيانة !

وانهمك وامبا فى النفخ فى بوقه . فحســب المهــاجمون ان تلك النغمات مقدمة جيش خف لنجدة الفارس فتراجعوا ، وصاح بهم الفارس الازرق :

ـ يا لكم من جبناء ! أتهربون امام بوق يتلهى به مهرج ؟

فامدتهم هذه الوخزة بالشجاعة ، وعادوا للهجوم . ولم يكن امام الفارس الاسود عندئذ الا ان يحمى ظهره بشــجرة بلوط ثم يواجه أعداءه . فانتهز الفارس الازرق هذه الفرصة وهجم راكبا جواده باقصى سرعته ورمحه مسدد كى يســمر الفارس الاسود فى الشجرة

ولكن وامبا كان له بالمرصاد . فقطع بخنجره فى مهارة فائقة حزام سرجه . ثم طعن بطن الحصان . فوقع الفرس والفارس معا

وفى هذه اللحظة بعينها مرق فى الجو سهم فصرع واحدا من اشد المهاجمين بأسا . ثم ظهرت كتيبة من رماة السهام يقودهم لوكسلى بنفسه ومعه الراهب الماجن العملاق

وفى دقائق معدودة كانوا قد اجهزوا على الكمين الغادر . وأخذ الفارس الاسود يشكر منقذيه ولكن فى انفة نبيلة لم يكن أحد يتوقعها . وكأن الاحداث الاخيرة قد حولت ذلك الفارس المجهول الملقب بالخائب الى شخصية فوق مستوى البشر

ــ انى اشكركم ايها الاصدقاء لمعونتكم الصادقة . ولكن اريد قبل كل شيء ان ترفعوا القناع الحديدى عن هذا الفارس الازرق . فانى مشوق ان اعرف من عساه يكون

واسرع وامبا لينفذ الامر . فلم يبد الفارس الازرق مقاومة وكأنه استسلم لمصيره المحتوم . واذا تحت ذلك اللثام وجه مكفهر لرجل مسن اشيب اللحية

وهتف الفارس الاسود فى لهجة من اذهلته المفاجأة :

ــ من أرى ؟ أأنت ياوالدمار ؟ هل انحططت الى مستوى قطاع الطرق ؟ ماالذى دفعك الى هذا ؟

فقال والدمار بصوت اجش :

ــ انه الطموح !

ــ اى طموح ؟ وضح ماتقول !

ــ كنت قد اقسمت لابن ابيك يمين الوفاء المطلق والاخلاص الذى لاحد له . ووعدته ان ازيل جميع العقبات التى تعترض طريقه . على ان يكافئنى بأرفع منصب تحت يده . وقد بررت بوعدى

ــ والآن هل تطلب الرحمة ؟

فساد الصمت لحظة ثم قال المهزوم :

ــ من اوقعه سوء طالعه بين براثن الاسد لامحيص له عن طلبها !

فقال الفارس الاسود على الفور :

ــ ليكن ياوالدمار ماتريد انى عفوت عنك . ولكنى امنحك ثلاثة ايام كى تختفى الى الابد عن ناظرى

والتفت الفارس الاسود الى لوكسلى وقال :

ــ وانت يالوكسلى . انى اعهد اليك بذلك الرجل ، ان تضمن له السلامة والامان الى ان يرحل

ــ سمعا وطاعة !

وعندئذ ابتسم الفارس الاسود وقال للوكسلى :

ـ اصبت أيها الرامى الصنديد حين أدركت انى جدير بالطاعة . فأنا ريتشارد ملك انجلترا !

وما ان سمع الحاضرون تلك العبارة حتى خروا ساجدين أمامه ، وقد افزعهم تلبسهم بالعصيان والخروج على القانون وقطع الطريق . ولكنه قال لهم :

ـ انهضوا أيها الاصدقاء . فمهما كانت اخطاؤكم ، فانى أراكم محوتموها بالعون الصادق الذى قدمتموه لشخصى ، وبالخدمات التى أديتموها لرعاياى المظلومين . ولن أنسى انكم كنتم رفاقى فى السلاح وقتا ما . فانهضوا كراما . واما انت يالوكسلى الشجاع . . .

فقال لوكسلى على الفور :

ـ لاتنادنى باسم لوكسلى يامولاى . بل ادعنى بذلك الاسم الذى لعله وصل الى اسماعك الملكية فى فلسطين البعيدة

ـ وماهذا الاسم ؟

ـ انا روبين هود !

ـ مرحى ياملك الخارجين على القانون وأمير الرماة بالسهام ! طب نفسا فلن نذكر لك ماخالفت من نصوص التشريع . فقد عرفت بنفسى كل شىء وادركت اى استبداد أخرجكم عن الطاعة للتاج . وسأتولى بنفسى وضع الامور فى نصابها

واتجه بعد ذلك الى وامبا فقال له :

ـ وانت أيها الحكيم وامبا . لقد اثبت جدارتك وحكمتك . ولن انسى لك هذه المزايا .



الفصل التاسع والعشرون

المعجزة

علمنا فيما سبق ان ولفريد لم يستطع ان يتغلب على عوامل القلق التي ثارت في نفسه خوفا على حياة زعيم محبوب . ولم يعر اذنا صاغية لتوسلات رئيس الدير له ان يبقى . فانطلق فى آثار الملك ريتشارد . وامام هذا الاصرار فوض رئيس الدير للعناية الصمدانية ان تتولى رعاية ذلك الفارس . واصر أن يركب ولفريد بغلته الخاصة الهادئة بدلا من جواده الحربى الشديد المراس العنيف الحركة . وكان فى صحبة ولفريد سائسه المخلص راعى الخنازير جورث الذى أعتقه مولاه

ولنا ان نتصور مقدار فزع ولفريد ودهشته الاليمة عندما وجد مولاه الملك وقد حملت هيئته كلها آثار معركة حامية ، وتناثرت من حوله جثث كثيرة غارقة فى الدم . ووقف مبهوتا لايدرى ماذا يقول

ولما رآه ريتشارد قال له متعجبا :

ـ اهذا انت ياولفريد ؟ أهكذا تنفذ اوامرى اليك بالاخلاد الى الراحة ؟ ولكن لا فائدة بعد الآن من الملام

واشار الى رجال روبين هود من حوله ، قال :

ـ لم يعد هناك مبرر للتكتم ، ومن تراهم اليوم حولى ياولفريد جماعة من اخلص رعاياى الانجليز . اما أولئك الذين تآمروا على حياتى فلم يعد لهم وجود . استأصلت شأفتهم . ومصالحى الشخصية تسير من حسن الى أحسن . وقد وصلتنى انباء طيبة اثناء توقفى فى الدير . ولكن الحكمة كانت تقضى قبل ذلك بكتمان خبر وجودى فى انجلترا . واما الآن فالموقف مختلف تماما . وفى استطاعتى فى مدى أربع وعشرين ساعة ان اجمع بفضل جهود

انصارى قوة كافية لسحق جميع العاملين على الفتنة او المتورطين في الخيانة . وسوف يتبخر جيشهم أمامى ويذوب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس

وصمت الملك ريتشارد قليلا ثم استطرد قائلا :

ـ ان حياة القطرة التى طالما اخذتها على لما فيها من عدم استقرار ؛ حياة لها سحرها الخاص . فهيا ياروبين هود أعد العدة لصيد كبير ينسينا متاعب المعركة . ونصنع من الصيد الملكى وليمة نسترد بها ماتبدد من قوانا . ولست اجهل ياروبين ان حيوانات صيد جلالة الملك هى المورد الاساسى لطعامك انت وزملائك .... وبعد ذلك سنتجه نحو قصر بيت الملك حيث نجد هناك من ينتظر قدومنا

وبدأت مطاردة الغزلان والايائل . وأوقدت نار عظيمة لشى هذه الحيوانات كاملة . ثم اقبل الجميع على الطعام بشهية السباع الضارية . حتى اذا ادرك الجميع الشبع . وتأكد العصاة من خلو مسالك الغابة من الاخطار ، ركب الملك ريتشارد يتبعه الفارس ايفانهو ومن ورائهما جورث وامبا . واتجه الركب بلا ابطاء الى مقر المرحوم اثيلستان . فوصلوا الى قلعة بيت الملك قبل غروب الشمس بنحو ساعتين . وهذه القلعة تقع فى جنوبى مقاطعة يورك

ويندر أن يوجد فى طول الجزيرة البريطانية وعرضها موقع يضارع موقع تلك القلعة السكسونية العتيقة . فهناك يجرى نهر الدون صافيا هادئا . وعلى ضفته ، فوق ربوة عالية يقوم بناء القلعة المهيبة . وهى من اضخم قلاع انجلترا ، واسوارها وجدرانها ذات سمك خارق للعادة . حتى ان حجرات النوم السرية كانت محفورة داخل الجدران ! وفوق قمة البرج الاكبر فى القلعة كان يرفرف علم اسود كبير ، ايذانا بأن جنازة صاحب القلعة لم تتم مراسمها بعد . وكانت الحركة على أشدها داخل القلعة وفيما حولها . حركة تدل على الاضطراب والتخبط على غير هدى ، بسبب الفجيعة المفاجئة لاتباعه ورعاياه

وكان مأتم اى سكسونى نبيل ، ولاسيما اذا كان من ارومة لها مجد سلالة اثيلستان ، مناسبة لاقامة مآدب جنائزية على أعظم جانب من الضخامة والسخاء والبذخ الذى لايتصوره عقل

ولايدعى الى هذه المآدب ذوو القربى والاصحاب فحسب . بل

من حق كل عابر سبيل ان ينال من تلك المآدب نصيبا . وهذا هو السر فى اعداد كميات لاحصر لها من المآكل كى تكفى اى عدد من الآكلين . وهذا هو السر أيضا فى ذلك الهرج والمرج والسيل الذى لاينقطع من المسافرين على اختلاف طبقاتهم ، الذين يضربون اكباد الخيل والبغال نحو قلعة بيت الملك

ولم ينس القائمون على اعداد ولائم المآتم ان الفقيد اثيلستان كان مشهوراً فى مدة حياته بانه من أعظم الناس قدرة على التهام الطعام . حتى قيل انه كان اشره شارب نبيذ فى عصره . فتفنن كبير الخدم فى تنويع الاصناف وتقديم انهار من الانبذة والجعة · كى تطيب روح السيد فى قبرها وتقر عينا

وحول مائدة هائلة من خشب البلوط اجتمع شمل أقرب الاقارب للمتوفى ، وزعماء اكبر وابرز عشائر السكسون فى البلاد . وعلى رأس تلك المائدة جلس النبيل سيدريك

ولما وصل ذلك الذى لم يزل فى نظر سيدريك الفارس المجهول صاحب الدرع السوداء ، نهض سيدريك وحياه مرحبا فى عبارات وجيزة ثم تبادلا شرب الانخاب · اما ايفانهو فتوارى حياء ، أو لسبب آخر نجهله ، وراء كتفى مولاه العريضتين · أما وامبا وجورث فوقفا باحترام شديد على بعد . . .

ونهض سيدريك بعد ذلك فتولى تقديم ضيوفه الى والدة اثيلستان الشكلى ، وقد حفت بها اعظم عقائل العشائر السكسونية . وفى مقدمتهن الاميره روينا السكسونية الخطيبة الرسمية للفقيد الراحل وكان مظهرها فى تلك المناسبة يدل على الجد والاهتمام لا على الهلع والفجيعة

وبعد ان اتم الفارس الاسود واجب العزاء لأم الفقيد اختلى فى حجرة مجاورة بسيدريك . وهناك ذكره بما قطعه على نفسه من الوعد على اثر سقوط قلعة توركيلستون . وطالب سيدريك بتلك الخدمة التى تعهد سلفا بأنها مقبولة · وأردف بقوله :

انى لا اطالبك بذلك هذه المرة وانا الفارس المجهول ، بل وانا ريتشارد صاحب انجو ، ملك انجلترا !

وظهرت الدهشة الشديدة على وجه سيدريك وصمت مبهوتا .

وعندئذ تنحى ريتشارد جانبا وقدم ولفريد قائلا :

ــ هذا هو ابنك الباسل المحبوب ، زميلي المخلص في المعارك واكاليل الغار . واني أطلب له اليك عفوك الابوى وموافقتك على زواجه من ربيبتك التي يحبها وتحبه ، الاميرة روينا

ففتح سيدريك ذراعيه وضم ابنه الى صدره . وكانت نفسه تنازعه الى ذلك منذ زمن طويل لولا عناده السكسوني ، وغضبه لجرح كرامته بسبب عصيان ابنه لأوامره

ورغم الحاح الملك ومابدا على الاميرة روينا من رغبة شديدة قال سيدريك :

ــ ايها الملك النبيل . انى آسف لانى لا استطيع ان البى رغبتك فورا . فهناك تقاليد واصول للياقة نتقيد بها جميعا . وانى لواثق ان عظام اجدادى ستثور سخطا على اذا انا زوجت الاميرة روينا قبل ان يضم القبر رفات ذلك الرجل الذى كانت مخطوبة له . وهى بذلك الاعتبار ينبغي أن تلزم الحداد عامين . والا برزت روح اتيلستان تلوح برمحه الدامى أمام اعيننا لتمنعنا من تدنيس ذكراه

ولم يكد يتم سيدريك هذه العبارة حتى وقع حادث غريب للغاية كأنه التأكيد العلمى لاقواله . اذ انفتح الباب بضجة عظيمة وظهر في فرجته اتيلستان ، أو شبحه : شاحب اللون ، فتجمع الحاضرون كلهم مأخوذين ، وأجفلوا وهم يرسمون علامة الصلب مرتاعين . وريتشارد قلب الاسد نفسه الذى لم يعرف الرجفة أمام مخلوق حى ، بذل مجهودا جبارا ليحتفظ بثباته

وأخيرا صرخ سيدريك مكفهر الوجه من الارتياع :

ــ باسم الله الحى ! من ذا الذى بعثك الينا ؟ أجبنى شبحا كنت أو بشرا !

فأجاب الشبح بأناة وهدوء :

ــ بكل سرور . ولكن اسمحوا لى بالايجاز فى الكلام لانى قضيت ثلاثة أيام ممنوعا من الطعام . وكل من يعرفنى يعلم أن ذلك عندى هو أوخم العذاب ! اجل ! اعلم ان الاصدقاء والاعداء ظنونى ميتا . واهتم الاصدقاء بدفنى بعد تجهيزى على حسب الاصول والتقاليد . وقد سرنى منهم هذه العناية الواضحة ولكنى أعتقد اننى لم أبلغ

الموت بعـــد !

واستطرد موجها الكلام الى ريتشارد قلب الاسد ، الذى لم يكن يرى فيه الا الفارس الاسود قاهره فى حلقة أشبى :

ـ وأود أن أقول لك يا سيدى الفارس أن عينيك خدعتاك فى أمرى ٠ فسيف فارس المعبد مهما يكن من أمر قوته لم يفلق راسى فرأسى صلب غاية الصلابة ٠ وفى آخر لحظة استطعت بفأسى أن أواجه الضربة فلم يصبنى الا بمسطح سيفه لا بحـــده ٠ بيد أن الصدمة كانت من العنف بحيث ألقتنى على الارض فاقد الرشد ٠ وقد استمر هذا الاغماء الكامل ثلاثة أيام وثلاث ليال قضيتها صائما صوما اضطراريا ، وراقدا فى وضع غير مريح ٠ وهذا هو كل ما أعانى منه الآن ٠ وانى لسعيد جدا أن تأذنوا لى فى اية لحظـــة بالانقضاض على الطعام المعد لمأتمى !

فلم يعد لدى سيدريك أدنى شك فى انه أثيلستان وليس شبحا وأن معجزة قد ردته الى الحياة ليؤكد حقوقه فى وراثة عرش جده الفريد ٠ ونجدد فى قلب سيدريك السكسونى العنيد أمل كبير فى اعادة الملكية السكسونية القديمة ، فخاطبه قائلا :

ـ ان عالما بأسره من المجد تتفتح أمامك أبوابه أيها النبيـــل أثيلستان ٠ فقل لهذا النورماندى الهمام ، الصنديد ريتشـــارد صاحب أنجو ملك انجلترا أن العدالة وحدها هى التى ســـتقضى بينكما أيكما ينبغى أن يحكم هذه البلاد !

فصاح أثيلستان فى دهشة :

ـ ماذا تقول ؟ أهذا حقا هو الصنديد ريتشارد قلب الاســد ؟ حاشا لله ان اضمر الضغينة عليه لانتصاره فى أشبى ! فان الهزيمة أمام أعظم رمح فى العالم المسيحى ليس فيها ما يخجل

ثم زاد فى دهشة سيدريك العميقة الاليمة حين قال :

ـ فاسمح لى أيها النبيل ريتشارد أن أقدم اليك ها هنا فى بيتى تقديرى الخالص العلنى واحترامى العميق !

والتفت الى سيدريك والى أمه التى بللت وجنانها دموع السرور

ـ أجل أيها الصديق النبيل سيدريك وأيتها الام العزيزة ٠ ان ثلاثة أيام من الصمت والصوم المطلق أعانت ذهنى على التـــأمل

والتدبر • فأدركت بجلاء اننى لست أهلا لحمل أعباء الامانه الملكية ومسئوليات الحكم • ولذلك أتركها لمن يبدو لى أجدر بها وأقدر عليها • فانى لم أخلق مناضلا بفطرتى • بل الراحة أحب الى نفسى وأما الزواج الذى فكرت فيه أيها النبيل سيدريك لتحقيق أمانيك القومية النزيهة ، فقد أيقنت أن فرضه على الاميرة روينا فرضا فيه انتهاك لاعز مشاعرها وأقربها الى قلبها • ولذا فانى أحلها من وعدها وأنا أعلم الى من ستوجه شرف منح يدهـــا • وأنت يا عزيزى ولفريد •••

وعندئذ اتجهت الانظار جميعا تبحث عن منافسه السعيد الحظ فاذا به قد اختفى •••

وعلم الناس فيما بعد أن شيخا يهوديا حضر قبلها بدقـــائق يحمل اليه رسالة مجهولة • فرحل ولفريد على الفور وفى صحبته جورث الى وجهة غير معروفة

واختفى كذلك الملك ريتشارد قلب الاسد على الفور • لانه خشى على صديقه الشاب الجريح من عواقب مغامرة محفوفة بالمكاره • فاختلى باليهودى العجوز الذى كان لم يفارق فناء القلعة بعد ، ثم ألهب بطن جواده وانطلق فى آثار ولفريد



الفصـــل الثلاثون

المحاكمة

كان اسحاق اليهودى قد اتجه الى الدير الذى به مقر قيـــادة الهيكليين ، بعد أن تزود بخطاب تقديم وتوصية من أسقف اسمر . واستراح قليلا فى دار بعض اقاربه لانه كان يعـــانى آلاما جسدية ونفسية شديدة . ولولا الحاح قريبه ذاك لما استراح تلك الساعات القلائل . لان اسحاق كان متلهفا غاية اللهفة على تحرير ابنتهربيكا. بل كان يخشى على حياتها

وكان قريبه ذاك يجهل موضوع رحلته جهلا تاما . ولكنه راى الهم والقلق باديين على اسحاق . وكان يعلم انوجهته دير الهيكليين، فصارحه بأن رئيس دير الهيكليين الحالى رجل فظ غليظ القلب . فليس بين رجال الدين من يضارع لوقا بومانوار فى عداوته لكلمن ليس كاثوليكيا ، ولا سيما سلالة اسرائيل . ويتناقل الناس النوادر التى تكاد تشبه الاساطير عن شدة هذا الرجل وصرامته ، حتى على اتباعه انفسهم . فانه حين مست قدماه الارض الانجليزية ، لاحظ شيئا من التراخى لدى جنود الهيكل فى تنفيذ تقاليـدهم المعهودة . فوجدهم يترددون على المجتمعات والمحافل المدنية . ويسعونللظهور والتألق فى المهرجانات وحلقات المبارزة الشعبية كسبـا للفخر ، ولا يحتقرون الترف ولذات الحس والثراء فهم على الجملة قد ابتعدوا فى نظر ذلك الراهب الصارم عما نذروه من التقشفوالبساطة.فقرر أن يرد هؤلاء الضالين الى سواء السبيل . بيد ان هذا المتعصـــب الضيق الذهن والافق كان يكره كراهة الموت شعب اليهود ، باعتبـاره العدو اللدود للديانة المسيحية . ويتهم افراد ذلك الشعب باعمـال السحر ، ويطالب بقتلهم واحراقهم لانهم اعوان الشيطان المتحالفين

معه ضد شعب المسيح

وعلى ضوءهذه المعلومات ، بدت لقريب اسحاق المخاطر تحف برحلة الشيخ الى دير الهيكليين . وصارحه بذلك في غير مواربة . بيد أن حرية ابنته وحياتها جعلنا اسحاق لا يبالى بشيء من ذلك . فشد الرحال الى الدير الذى كان بناؤه الضخم محصنا على غرار جميع الابنية الدينية حينئذ

وقابله احد الرهبان فسأله عن غرضه . فقدم اليه اسحاق الخطاب الذى يحمله من أسقف أيمر . وعلى الفور أدخل اسحاق وهو يرتجف الى حضرة الرئيس المرهوب الجانب . ووجد عناء شديدا فى عرض مسألته والافاضة فى عملية اختطاف ابنته عنوة . ثم ذكر انه جاء ليتفاوض فى فدية ابنته . وعندئذ قال له رئيس الدير :

ــ ولكن الخطاب الذى تحمله يشير الى أن ابنتك تداوى النـاس بمهارة . وأنها تحتفظ بأسرار خاصة للعلاج . وذلك يوحى بأنها على صلة خفية بالشيطان . فهكذا كانت تفعل ساحرة اندور المشهورة، التى يقال ان ابنتك ربيكا هى صورتها الحية . ومعنى ذلك يا رجل ان ابنتك تشتغل بالسحر . فأجبنى ايها اليهودى ولا تكتمنى شيئا من الحقيقة

فارتعدت اوصال اسحاق وقال بلسان متلعثم :

ــ ان ابنتى تكتفى فى العادة لعلاج الجرحى باستعمال مرهم تأثير عجيب . وسر تركيب هذا المرهم الذى تكتمه عن جميع الناس، تلقته من عجوز حكيمة من نساء عشيرتنا اسمها مريم كانت . . .

فصاح لوقا بومانوار رئيس الدير يقاطعه قائلا :

ــ مريم ؟ ! انها تلك الساحرة الشيطانية التى حكمنا عليها بالهلاك جزاء وفاقا لتحالفها مع قوى الشر ! انصرف الآن يا اسحاق فقد سمعنا اقوالك ونظرنا فى القضية . ولا تثقل على بمثول شخصك أمامى بعد الآن . وقوانين رهبنتنا تحتم على تقديم ابنتك الى محكمتنا الخاصة لنظر قضيتها . فاعلم ان ابنتك ستحاكم باعتبارها ساحرة شريرة

وحاول الوالد المسكين ان يعرض الاموال المغرية فدية لابنته . ولكن تلك العروض كانت تزيد من ثورة الاب لوقا واستنكاره . وهكذا

اضطر ذلك الوالد اليائس المرزوء ان يعود الى بيت قريبه لينتظر هناك ما سيتلو ذلك من احداث

وابتداء من اليوم التالى تم تشكيل المحكمة المخصوصة بأمر من الاب لوقا ومثلت أمامها الساحرة اليهودية ربيكا

وكان الاب لوقا حريصا على استكمال أكبر مظاهر الرهبة لتلك المحاكمة فأمر باقامة منصة عالية لجلوس كبار رؤساء الرهبنة ، يتوسطهم مقعد ضخم مخصص له شخصيا . وارتدى الجميع المعاطف الكبرى بلونها الابيض الناصع وقد نقش على الكتف اليسرى شعار الهيكليين ، وهو الصليب . وأمام المنصة ازدحمت المقاعد بفرسان الهيكل العاديين وغيرهم من المدنيين والفلاحين وأوساط الناس

ورغبة فى ابراز الموضوع بثت دعاية ضخمة لهذه الجلسات . وجلس قائد فرسان الهيكل الفارس بريان فى المكان المخصص لرتبته على المنصة العالية ، وعلى وجهه أمارات الشراسة والكبرياء المعهودتين فيه

وبعد ان انشد الهيكليون نشيدهم باللغة اللاتينية ، وتلوا صلاة قصيرة بتلك اللغة ايضا ، ادخلت المتهمة الى القاعة

وتقتضينا الامانة ان نذكر هنا ان احساس ربيكا ببراءتها التامة من كل تهمة ، جعلها تدخل ثابتة القدم ، وتنظر نظرات مطمئنة هادئة الى الحاضرين جميعا ، فلم يظهر عليها ما يدل على خوف أو انفعال

وفى طريقها الى المكان المخصص لها ، دس شخص مجهول فى يدها رقعة صغيرة مطوية ، احتفظت بها فى يدها من غير ان تنظر فيها ..

وأعلن الاب لوقا افتتاح الجلسة . وقرأ المدعى العام صحيفة الاتهام . ثم قال رئيس الجلسة موجها الكلام الى الحاضرين :

— هل يوجد لدى أحد من حضراتكم اى بيان يساعد ضمائر القضاة على توضيح الحقيقة ؟

وقام الشهود فأكدوا انهم رأوا المتهمة تعالج المرضى وتتلو ادعية بلغة مجهولة . وكان فى شهادة هؤلاء مايكفى لاثبات تهمة الاتصال بالشياطين على اليهودية . ولكن شاهدا واحدا ، لم يكن سوى فلاح فقير كان من الشجاعة بحيث وقف فاعلن اعترافه الكامل بفضل ربيكا لما قامت به من علاج لشخصه فى بيت أبيها بمدينة يورك . وأن

شفاءه يرجع الى الخواص العجيبه لرصمها العريب

واعطيت الكلمة للمتهمة كي تقول ماتشــاء في الدفاع عن نفســها فوجهت الكلام الى الفارس بريان :

ـ سيدى الفارس ، انك تعلم قبل سواك من الناس ان كنت مذنبة او غير مذنبة . ولعل كل ذنبي في نظرك انني اظهــرت انفة واباء في سلمى لك . ولكنى اخاطب ضميرك لترفع عني تهمة ظالمة لا أساس لها ، وترد في باختيارك الى احضان أبي . فهو على استعداد تام كما تعلم ، لدفع أية فدية تحددها المحكمة الموقرة

فوجد بريان نفســه محورا القضيــة ، ولم يشأ ان يظهر امام الناس بمظهر الضعيف امام توسلات ربيكا . ولكنه صاح بصوت مختنق :

ـ الورقة الورقة !

فتذكرت ربيكا الورقه المطوية في يدها ونشرتها فقرأت فيها هذه الكلمات بحروف عربية :

ـ اطلبي حكم الله !

ولحكم الله في ذلك العصر قصة لابد ان نعرفها . وخلاصتها انه حين يستنفد الخصمان في أية قضية حججهما ،ويبدو الموضوع غامضا في نظر القضاة ، لايدرون لمن من الطرفين يحكمون ؛ يلجأ الطرفان الى طلب حكم الله . فيزود كل من الخصمين بهراوة ودرع ، ويبدأ القتال الفردى بينهما . والمفروض ان العدالة الالهية ستتــدخل لمصلحة البرىء منهما ، وقد أنشأ ذلك النظام الغريب الامبراطور شارلمان

وبعد ان قرات ربيكا الورقة سكتت فسألها رئيس الجلسة :

ـ ألديك اقوال اخرى ياربيكا ؟

فقالت بثبات ويقين :

ـ اجل يا صاحب النيافة . ان ملاذى الاخير هو حكم الله . على ان تكون المبارزة في ميدان محــدد ، وان يكون وكيلى فيها الفارس الذى اختاره

فقال الاب لوقا متعجبا :

ـ ولكن من هو الفارس المسيحى الذى يقبل ان يشرع رمحــه دفاعا عن ساحرة يهودية ؟

ـ سيدبر الرب هذا الامر ، وهأنا اتقدم بالتحــدى على حسب

الاصول المرعية شرعا

وبحركة رشيقة نبيلة خلعت احد قفازيها المزركشين ، والقت به تحت اقدام رئيس الجلسة . فسرت بين الحاضرين همهمة دهشة لذلك التطور غير المنتظر . ولم يبرأ من الدهشة الاب لوقا نفسه الذى اذهلته شجاعة الفتاة فقال :

ــ ان قفازك أيتها الفتاة ، حين يتعلق الامر بمبارزة حتى الموت ، لايساوى شيئا كثيرا بالقياس الى قفافيزنا الحديدية الثقيلة . ففكرى فى الامر بروية . لان قوانيننا تحتم علينا اجابة طلبك . وتخول لنا اختيار البطل الذى سيمثل شرف منظمتنا فى هذه المعركة

ــ لقد قلت كلمتى الاخيرة

ــ ليكن لك ما اردت اذن . والان ما رأيكم ايها الزملاء فى من نختاره لهذه المهمة الخطرة ؟

فقال احد القواد بلهجة ذات مغزى :

ــ ما من احد يمكن أن يكون جديرا بذلك الشرف كالفارس بريان قائد الفرسان . ثم أن موضوع القضية يعنيه بصفة شخصية فى المقام الاول

ــ اتفقنا اذن . واننا نعهد بقضيتنا الى يدى الفارس الهمام الرفيع القدر والمقام بريان . وهو اختيار صادف اهله

ثم نظر الاب لوقا الى المتهمة وقال :

ــ وامامك ياربيكا ثلاثة ايام لاختيار الفارس الذى يقبل المبارزة باسمك . فاذا انقضت هذه المهلة ولم يظهر ذلك الفارس . أو ظهر وهزم ، سيقام عليك الحد الذى نقيمه قانونا على السحرة . فتحرقين حية بمقتضى هذا الحكم الذى سأتلوه الآن

وسكت قليلا فساد الصمت ، ثم شرع يتلو الحكم :

« أن ربيكا ابنة اسحاق متهمة بممارسة اعمال السحر المحرمة شرعا ، وبناء على ثبوت تلك التهمة عليها اثناء نظر قضيتها علنا ، قد قررت المحكمة ادانتها بتلك التهمة . ونظرت المحكمة فى الالتماس المقدم منها بالالتجاء الى حكم الله . فقررت المحكمة اسناد تمثيلها فى تلك المبارزة حتى الموت الى القائد بريان ، وكلفته بالدفاع عن شرف الهيكليين . وامرت المحكمة المتهمة باحضار ممثلها فى مدى ثلاثة

أيام الى ميدان سان جورج بجوار الدير . وقـــرر الاب لوقا رئيس الجلسة ان تدور المبارزة بحضوره . وليحق الله الحق فى تلك المبارزة ولينصر العدل »

وبعد ان استمعت ربيكا وهى واقفة بإباء وشمم الى منطوق الحكم طلبت من المحكمة أن تسمح لها بالاتصال بأقاربها لاطلاعهم على نتيجة الموقف . ولم يكن فى وسع المحكمة ان ترفض طلبا عادلا كهذا . وعندئذ نظرت الفتاة حائرة تلتمس بين الحاضرين من يحمل رسالتهـــا الى أبيها . فتقدم الشاهد الوحيد الذى شهد لمصلحتها ، وتعهد بحمل رسالتها الى والدها اسحاق .

وشاءت المصادفة ان يلتقى فى طريقه بالقرب من الدير باسحـــاق نفسه ومعه قريبه . وكانا ينتظران أخبار المحاكمة بهلع شـــديد . فعرفهما على الفور بالقلنسوة الصفراء . وتذكر هذا الفلاح سحنـــة اسحاق وهو الذى قضى فى ضيافته عندما كان مريضا جملة أيام . فسلمه الخطاب . فقرأ فيه الوالد المسكين تفاصيل الجلسة

وفى نهاية الخطاب ناشدت الفتاة والدها ان يسرع فى البحث عن ولفريد ايفانهو . لانها لاتعرف احدا يضارعه نجدة ونخوة وشجاعة ، كى يدافع عن قضيتها . بشرط أن يكون قد استرد عافيته فتسمح له صحته بارتداء دروعه

ولم يضيع اسحاق لحظة واحدة وأسرع يسابق الريح بحثا عن الفارس المغوار . وكان من حسن حظه انه وجده فى قلعة بيت الملك بمناسبة مأتم اثيلستان المزعوم



الفصل الحادى والثلاثون

المعركة

أوشكت المهلة الممنوحة للمتهمة أن تبلغ غايتها . ومنذ الصباح الباكر لليوم الثالث والاخير ، كان الفضوليون والمغرمون بالمناظر المثـــيرة يتدفقون من الارياف المجاورة نحو الدير ، وكأنهم ذاهبون الى مهرجان من مهرجانات الموالد والاعياد . وكانت الحماسة والاقبال فى هــذه المرة لا يقلان عن الحماسة والاقبال على حلقة أشبى التى وصفناها فى مطلع هذه الرواية . فجمهور المتفرجين يضم اقواما من مختلف عناصر المجتمع وطبقاته ، بين محاربين وقضاة وكتبة وعلمانيين وأرقاء ونبلاء ونبيلات ، غصت بهم ســاحة سان جورج الواسعة المقفلة ، وهى الساحة المجاورة للدير وفيها سيكون الفصل الختامى لهــذه المأساة

وفى احد أطراف الساحة اقيم عرش مخصص للاب لوقا الرئيس الاعلى لدير الهيكليين . ومن حول ذلك العرش مقاعد مخصصة للقادة وكبار ضباط الهيكليين . ومن فوق هؤلاء جميعا يرفرف علم فرسان الهيكل

وفى مواجهة تلك المنصة كومة ضخمة من الحطب والخشب اقامها العبيد . ووقفوا على استعداد كامل لاشعال النار فيها عند صــدور الاشارة المتفق عليها ، وتكون المتهمة قد وضعت فوق المحرقة

وسرت بين الناس همهمة . فان الناقوس الكبير فى كنيسة مجاورة اخذ يدق ايذانا بان اللحظة المنتظرة قد حانت . واتجهت جميــــع الابصار نحو قلعة الدير حيث ينبغى أن يخرج منها الاب لوقا الرئيس الاعلى يحف به اقطاب الهيكليين ، وبطلهم الذى سيمثلهم فى المبارزة ، والمتهمة

وكان بريان مرتديا دروعا كاملة براقة ، يمشي في كبر ووقار كعادته. بيد ان وجهه كان شاحبا مكفهرا . مما يدل على أن عاطفة عميقة تعصر قلبه وتضني جوانحه . أليس هو في الواقع السبب المباشر لهذا الاخراج المسرحي الفظيع وخالق تلك المأساة ؟ الم يكن في وسعه ان يكون اقل عنادا وكبرياء واكثر انسانية !

أما ربيكا فكانت تمشي بخطوة بطيئة ، بيد انها ثابتة مطمئنة نحو مكان التعذيب . وقد استبدلت بثوبها الشرقي المعتاد ثوبا ابيض طويلا . وظهرت على محياها امارات الشجاعة والاستسلام الرواقي. حتى انها لم تكد ترتجف الا قليلا عندما رأت المحرقة التي اعدت لها عن كثب منها . وحرصت على أن تشيح بناظريها عنها . وأخذت شفتاها تتحركان بكلام غير مسموع ، لابد انه صلاة اتجهت بها من اعماق قلبها الى رب الارباب ، رب المسيحيين واليهود وسائر ذوى الاديان ، كي لا يتخلى عنها في محنتها المصمية

ومع ذلك لم يحترم الجمهور محنتها وكثر اللغط حولها ، الى أن رفع الاب لوقا يده وأمر بالصمت . وقرعت الطبول قرعا متواصلا . وارهفت الآذان ، ثم نفخ المنادون في الابواق :

ــ ان المدعوة ربيكا بنت اسحاق ستسلم الى الجلاد لتعذيبها بالنار واحراقها حتى الموت ، مالم يتقدم فارس ليحل محلها فيضمن براءتها بحياته ، ويقاتل في مبارزة شريفة الفارس بريان الذى وكله الهيكليون في الدفاع عن حقهم في هذه الخصومة

وانقضت فترة من الزمن . ثم سأل الاب لوقا المتهمة ان كانت تنتظر حضور الفارس المطلوب ، فأجابته قائلة :

ــ ارجو من قداستكم التكرم بمنحي مهلة الى آخر دقيقة . لانى واثقة ان اله ابراهام واسحاق ويعقوب لن يترك الكلمة الاخيرة للظلم

ولكن بعض الحاضرين كانوا متلهفين على مشاهدة النهاية الفاجعة بأى شكل . فصاحوا يطلبون الاسراع بالتنفيذ مادامت اليهودية لم تنفذ الشرط . وزعموا انها تماطل كسبا للوقت ليس الا . وتململ الاب لوقا في جلسته مترددا . واذا بسحابة من الغبار تثور قرب الافق . وتكشفت السحابة عن فارس يعدو بأقصى قوة جواده نحو الميدان . فارتفع الصياح من كل جانب وقد تهلل الناس لانهم

سيشاهدون مبارزة مسلية :

ـ فارس فارس !

وهكذا اسكت القادم فى اللحظة الاخيرة اصوات المغرضين . واثلج صدور اولئك الذين مالت قلوبهم رغم كل شىء الى نصرة الشباب والجمال

ولكن عندما اقترب الفارس من الجمهور خامر الجميع الشك فى ان يتمكن من الاضطلاع بمهمته العسيرة . فجواده يكاد يسقط من شدة التعب . ومظهر الفارس نفسه يدل على انه ضعيف لا يكاد يثبت فوق سرجه . فكيف يمكن لمثله أن يواجه أقوى فارس حامل رمح بين فرسان الهيكل ؟

ووجهت الاسئلة التقليدية الى ذلك الفارس الغريب فأجاب عنها فى اباء وكبرياء :

ـ من انت ؟

ـ انا فارس ومن النبلاء

ـ ولماذا اتيت ؟

ـ اتيت لادافع بالرمح والسيف عن القضية العادلة ، قضية ربيكا ابنة اسحاق اليهودى من مدينة يورك

ـ أتدرى من الذى ستنازله ؟

ـ انى على تمام الاستعداد لمنازلة السيد الفارس بريان وجها لوجه فى هذا الميدان المقفل . وان فى اسمى وحده مايغنى عن كل بيان : فانا ولفريد ايفانهو !

فزمجر بريان قائلا :

ـ ليس مرادى ايها الشاب ان اقاتلك فى يومنا هذا . اذهب فعالج جراحك واتخذ لنفسك جوادا أفضل حالا من جوادك هذا . وربما وجدت فيما بعد وقتا اعاقبك فيه على وقاحتك الصبيانية !

فصاح ولفريد :

ـ ماذا دهاك أيها السيد الهيكلى ! يبدو أنك ضعيف الذاكرة جدا . انسيت ما حدث فى حلقة اشبى ! ؟ وما حدث من قبل فى حلقة عكا بالاراضى المقدسة . وهل نسيت وعدك بقتال ايفانهو وانت على مائدة العشاء فى بيت أبى وتقديمك سلسلتك الذهبية رهينة للوفاء

بوعدك هذا ؟ لقد جعلتك تلعق التراب . مرتين ! وفي المرتين كنت تحت رحمتي . فتذكر هذا جيدا . واعلم انك ان لم تفعل المنازلة التى كلفك بها رئيس منظمتكم الاعلى . الذى يمثل في هذه الساحة القوانين السماوية والارضية ؛ فسأذهب الى كل مكان في انجلترا وأوروبا به حصن أو دير وأعلن على رءوس الاشهاد انك جبان رعديد !

وكان ذلك التعريض اعنف مما يطيق بريان . فجعل يخور كالثور اذا آلمه المناخس وصاح :

ــ ليكن لك ما اردت ايها الكلب السكسونى ! لن أبقى عليك ! فتأهب للموت الذى استنزلته على نفسك !

ومن غير ان يعيره ولفريد التفاتا او يعلق على اهاناته ، التفت الى ربيكا وسألها بهدوء تام

ــ هل تقبلينني فارسا وكيلا على حقك وشرفك ؟

ــ اسأل الله الا تخونك قواك . وليمدك الله بروح من عنده !

ووقف كل من الفارسين فى مكان محدد . ولاحظ سائس بريان ان وجه سيده قد انقلب من الصفرة والشحوب الىالاحتقان والحمرة وصاح احد المنادين فى بوقه ثلاث مرات :

ــ فليقم كل منكما بواجبه أيها الفارسان الشهمان !

ثم قرعت الطبول فاندفع كل منهما نحو الاخر . وكان واضحا ان دابة ولفريد المستعارة التى أنهكتها الرحلة الطويلة لم يكن لها قبل بالصمود أمام جواد بريان المدرب . فحدث ماكان متوقعا من اول صدمة . اذ وقعت تلك الدابة متهالكة على الارض . ولكن دهشة الناس بلغت ذروتها ، حينما راوا بريان يقع عن جواده بضربة من رمح ولفريد . وعلى الفور تخلص ولفريد من دابته وامتشق سيفه ووضع قدمه فوق صدر عدوه وصاح :

ــ اعترف بالهزيمة والا فانت ميت !

ولم يرد بريان . فجاء مراقبو الميدان ورفعوا عنه خوذته . فاذا عيناه الزجاجيتان تطل منهما نظرات الموت . فقد كان جثة هامدة

وارتفع صوت الرئيس الاعلى بنبرات حزينة قائلا :

ــ هذا هو حكم الله الحق . وانى اعلن ان المبارزة كانت شريفة . وأن خصم بريان قد اشترى بسيفه ورمحه حياة ربيكا بنت اسحاق

وحريتها . هكذا اراد الرب !

ولم يكد الاب لوقا يتم هذه العبارة حتى ارتفعت ضجة من سنابك خيل قادمة . وكان القادم هو الملك ريتشارد بشخصه يتبعه عدد من الفرسان مدججين بالسلاح من قمة الراس الى اخمص القدم ، ومن ورائهم كتيبة كاملة من الرجال المسلحين

وصاح الملك فى غضب :

ـ يا ولفريد ! ما هذا التهور الذى اقدمت عليه ؟ لقد كان من حقى ان ابارز بدلا منك . فبينى وبين بريان حساب قديم ! والحمد لله انك صحيح معافى . وان خصمك مات كما يموت كل شجاع وسلاحه فى يده ، فظل فارسا باسلا حتى النهاية !

وتكاثر الناس ليحيوا ملكهم بعد غيبته الطويلةفى حماسةجنونية ، وهم يهتفون بحياته ويصفقون . فخاطبهم ريتشارد قائلا :

ـ ايها الاصدقاء ! ان هتافكم يمس شغاف قلبى . وانى لسعيد بكم وبسروركم . ويضاعف من سعادتى ماجاءنى من انباء مدينتنا يورك . فان الخونة قد خذلهم الله . وهدى الله اخى جان نفسه ، فأعلن ندمه وولاءه لى وتعاونه معى . ومن الكزازة ان اضن عليه اليوم بصفحى . ولا استثنى من هذا العفو الشامل الا راسى الفتنة والدمار وبراسى . ولكنى امنحهما حياتهما بشرط الارتحال عن بلادى . واحلهما من الولاء لى . ولكنى اليوم مهتم بتأمين الناس على ارواحهم واموالهم وبيوتهم . وعندى من الاسباب مايخول لى القول بان شعبى سيأمن شرور العصاة الخارجين على القانون بعد اليوم . لان هؤلاء سيكونون من اخلص الرعايا لعرشنا

ثم اتجه الى الاب لوقا قائلا

ـ وانت ايها الرئيس الجليل ، لقد بلغنى ماتتصف به من حزم وعزم . وارجو ان يكفل ذلك ايقاف فرسانك عند حدهم والكف من غلوائهم كى يستعيد اسم الهيكليين سمعته التقليدية

وعندئذ انحنى امام ريتشارد جميع الواقفين . ثم انسحب الهيكليون الى ديرهم بنظام ، والتف حول الملك رجاله وعلى راسهم ولفريد ولوكسلى . وربيكا واسحاق

الفصل الثانى والثلاثون

الختام

وبعد بضعة ايام من ذلك الموقف التاريخى أقيمت فى مقر النبيل سيدريك مأدبة حافلة لاعلان اقتران ولفريد ايفانهو بالاميرة روينا . وكان ذلك القران فى اطار من البذخ ليس له نظير اشترك فيه الناس كبارهم وصغارهم

وحضر وامبا وجورث بصفتهما الجديدة ، وهى انهما من الرجال الاحرار ، وقد ارتديا ثيابا قشيبة فاخرة . . .

وكان حضور الملك ريتشارد قلب الاسد بالغا بالحفلة ذروة البهاء والرواء . لانها تجاوزت الرباط الشخصى بين عروسين ، وأصبحت احتفالا قوميا بالوحدة الوطنية التى شعر الجميع بمسيس الحاجة اليها . ولم يكن من المنتظر ان يجود التاريخ بملك أقدر على تحقيق تلك الوحدة من ريتشارد . فأمام شخصيته النبيلة ورقته وشهامته وبسالته وقوته الخارقة ، اختفت جميع الخلافات . ونسى المعسكر السكسونى أحقاده . وجنح المعسكر النورماندى الى التساهل

وهكذا رأت الامة الانجليزية كلها عهد التطاحن والحروب الاهلية الذى يشبه الكابوس الوخيم يتلاشى وينطوى ؛ ولو لاجل محدود ، لتبدأ صفحة من الطمأنينة والسلام

وفى مساء ذلك اليوم نفسه جاءت شابة وعلى وجهها قناع وطلبت مقابلة العروس فأدخلت اليها على الفور . وكانت تلك الزائرة هى ربيكا . اتت لتعرب للاميرة روينا عن تمنياتها لها بطول العمر والسعادة، ولترجوها فى أن تعبر لزوجها عن امتنانها الابدى وامتنان والدها . ثم اضافت :

ـ وارجو يا سيدتى أن تتقبلى هذا الصندوق تعبيرا منها ... عن

تقديرنا لمعروفكما

فلما فتحت الاميرة روينا الصندوق رأت فيه مجموعة من الجواهر الثمينة فاضطربت وترددت . ولكن ربيكا بادرتها بقولها :

ـ ان الرفض سيؤلمني جدا . فتقبليها ايتها الاميرة العزيزة ولتباركك السماء . فاني لن اتحلى بها وقد نذرت أن اقضي بقية ايام عمري في الترفيه عن المعذبين والمتألمين . وسأخصص ثروتي الدنيوية لذلك الغرض النبيل

ثم انحنت امام روينا وانصرفت ودخل على الاثر ولفريد فضم روينا الى صدره . ليستقبلا حياتهما السعيدة معا بعد طول كفاح وعناء



القصص العالمية للجميع

الفرسان الثلاثة "جزئين"	اسكندر ديماس
الكونت دي مونت كريستو	〃
ذهب مع الريح "جزئين"	مارغريت ميتشل
رجال ونساء .. وحب	جون شتاينبك
ليلة غرام	سومرست موم
كنت جاسوساً	〃
غادة الكامليا	مارسيل موريت
جريمة في الريفيرا	جورج سيمنون
الأرض الطيبة	بيرل باك
عذارى المعبد	〃
ايفانهو "أو الفارس الأسود"	سير والتر سكوت
دافيد كوبرفيلد	شارل ديكنز
أحدب نوتردام	فيكتور هيغو
الام فرتر	يوهان جوته
العجوز والبحر	ارنست همنغواي
سوف تشرق الشمس	〃
الكأس الأخيرة	اجاثا كرستي
عدالة السماء	〃
القاتل الخفي	〃
الرجل الغامض	〃
غادة طيبة	〃
عذراء وثلاثة رجال	جيمس هيلتن

مطابع المؤسسة العامة للوسائل التعليمية حلب [illegible] المنطقة الحرة